

الممارسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر

جميلة بو حيرد أنموذجاً

د. وفاء كاظم ماضي

جامعة بابل/كلية التربية (صفي الدين الحلي)

المقدمة

يزخر تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر بالنماذج البطولية المشرفة والمقاومة للإطماع الاستعمارية المتعددة، والجزائر واحد من البلدان العربية، الذي تدل تجربته النضالية ضد الاستعمار الفرنسي منذ العام (1827) وحتى اعلان الاستقلال عام (1962) على روح المقاومة العربية، والتحدي والصبر من اجل تحقيق النصر وإعلان الاستقلال، وفي ذات الوقت دلت تجربة الشعب الجزائري على بشاعة ووحشية الاستعمار الفرنسي التي كان يطبقها على مناطق متعددة من الوطن العربي لتكبيله بسلاسل التخلف والجمود لعرقلة مواصلة مسيرته الحضارية الممتدة لآلاف السنين والدالة على اصالة وحضارة الوطن العربي العريقة. ضربت الجزائر بمقاومتها الشجاعة للاستعمار الفرنسي، ولأكثر من قرن، مثلاً رائعاً يحتذى به للعالم اجمع، وبرهنت ان الرجل والمرأة سبيان لا اختلاف بينهما في مقاومتها للاستعمار وتحديهما للأساليب الاستعمارية التي دأب المستعمر على ممارستها على ابناء الجزائر، والتي تنوعت اشكالها ومسمياتها وهدفها واحد، هو القضاء على هوية الشعب الجزائري لينكر هويته العربية ويكون تابعاً لفرنسا وعلى مختلف الاصعدة. فبرزت لنا خلال الحقبة موضوع البحث اسماء لثبات جزائريات لعبت دوراً مشرفاً في حركة التحرر الوطنية، وقمن بدور يضاها دور الرجال، فبعضهن قدن ثورات مهمة مثل المجاهدة (لا لا فاطمة) والمجاهدة (عائشة الجزائرية) وغيرهن ممن كان لهن شرف الاسهام في نيل الاستقلال، وهناك نساء اخريات تعرضن للتعذيب وصدر بحقهن حكم الاعدام، ولعل ابرزهن المناضلة (جميلة بو حيرد) التي كانت بصبرها وتحملها عذاب التعذيب الذي مارسه عليها الجنود الفرنسيين، قد ضربت مثلاً رائعاً، امتد تأثيره على بقاع مختلفة من العالم، لذلك حاولنا خلال هذا البحث تسليط الضوء على حياة هذه المناضلة فطرقتنا لنشأتها، ثم عملها الثوري الذي قاد لاعتقالها وتعرضها للتعذيب، وبالتالي محاكمتها بمحاكمة صورية انتهت بإصدار حكم الإعدام عليها، ثم تطرقنا الى التأثير الذي تركته سواء على مستوى الجزائر نفسها، ام على المستوى العربي والعالمي وأخيرا حياتها بعد اعلان الاستقلال عليها 1962. قسم البحث الى مبحثين الاول تناول الدوافع التي دفعت فرنسا للتفكير باحتلال الجزائر والأساليب الاستعمارية التي مارسها فرنسا على ابناء شعبنا في الجزائر مثل سياسة الفرنسة وفرض الخدمة العسكرية الاجبارية ومحاربة الدين الاسلامي، فضلاً عن استخدامها لأساليب تعذيب بحق المجاهدين أدت قسماً منها الى وفاة بعضهم ممن لم يتحملوا بشجاعة هذه الاساليب، التي لم ترضي الفرنسيين انفسهم، فما كان من احرار فرنسا ألا القيام بمعارضة هذه الاساليب من خلال اصدار الكتب والمقالات الداعية الى ايقاف نزيف الدم المتواصل في الجزائر، ولعل ابرز ماكتب هو كتاب (ضد التعذيب) للكاتب الفرنسي (بيير هنري سيمون). اما المبحث الثاني فقد تناول نضال المرأة الجزائرية منذ الاحتلال الفرنسي وحتى اعلان الاستقلال، مع اعطاء انموذجاً للممارسة الاستعمارية الفرنسية وهي المناضلة (جميلة بو حيرد) التي تناولنا نبذة مختصرة عن حياتها الشخصية ونضالها والتعذيب الذي تعرضت له. واجهت البحث صعوبات، وقف بمقدمتها ندرة المصادر التي تناولت حياة المجاهدة (جميلة بو حيرد) وتناقض المعلومات الواردة عنها من مصدر الى آخر، خاصة وان بعض المصادر تذكر انها سقطت شهيدة في ايام الثورة، لكن الحقيقة تؤكد انها عاشت بعد الثورة ولكن بعيداً عن الاضواء، ومدت المعلومات المتواجدة على شبكة الانترنت النقص الواضح في المعلومات المتوفرة عن المناضلة جميلة. اعتمدنا على مجموعة قيمة من المصادر، غالبيتها لأشخاص كانوا معاصرين للثورة الجزائرية ومنها كتاب (الجزائر عبر الاجيال) للكاتب (مسعود مجاهد)، وكتاب (دفاعاً عن جميلة) للكاتبين الفرنسيين (جورج أرنو وجاك فيرجيس) وغيرها من الكتب العربية المهمة، فضلاً عن المقابلات الشخصية مع بعض الاشخاص الذين التقوا بالمناضلة (جميلة بو حيرد).

المبحث الأول

أولاً: الاحتلال الفرنسي للجزائر

كانت الجزائر في القرن الثامن عشر شبه عاصمة للشمال الافريقي، الذي استطاعت الدولة العثمانية من مد نفوذها اليه لتؤسس بذلك امبراطورية واسعة الاطراف شكلت المدن العربية في الشرق والغرب غالبية مناطق هذه الامبراطورية واستطاع العثمانيون من فرض سيطرتهم على معظم مناطق الجزائر، ولكن هذه السيطرة لم تكن الا سيطرة اسمية، فالقوات العثمانية تركزت في المناطق الساحلية فقط، في الوقت الذي اعتمدت على نظام التحالف مع القبائل القاطنة في المناطق الجنوبية، لضمان جباية الضرائب السنوية للدولة العثمانية¹. شكل البدو الغالبية العظمى من سكان الجزائر، والذين اعتمدوا في معيشتهم على تربية المواشي، مثل الخيل والأبقار والأغنام. مع تصدير الفائض عن حاجتهم الى الخارج، اما سكان الوديان والواحات، وبحكم استيطانهم في الاراضي الزراعية، فقد عملوا بمهنة الزراعة، المهنة الأكثر رواجاً بين سكان الوطن العربي خلال هذه الحقبة، فقد كانت وديان وواحات الجزائر من المناطق الخصبة والغنية بزراعة القمح والخضروات والفاكهة وفي مقدمتها العنب. فضلاً عن هاتين المهنتين، تربية المواشي والزراعة، كانت هناك الصناعة التي لم يتجاوز عدد العاملين فيها (10%) من مجموع السكان، وتكاد هذه النسبة تتساوى او ترتفع قليلاً في عموم المناطق العربية، فالصناعة كانت بدائية ولم تتطور كثيراً بعد الثورة الصناعية لأسباب تتعلق بالأوضاع السياسية والاقتصادية المختلفة التي كانت تحيط بالمناطق العربية جراء السيطرة العثمانية التي امتدت لقرون طويلة، وتصدرت مهنة تقطيع الخشب بقية الصناعات لانتشار الغابات العديدة ومن ابرزها غابات بني عمرو، وبني منصور التي كانت تزود العمال بالخشب الذي يستفاد منه في بناء السفن والأساطيل وساعد غنى التربة بمعدني الحديد والنحاس على تطور صناعة

المصادر والهوامش¹

1. هند فتال ورفيق سكري، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، بيروت، 1988، ص262 (1)

الاسلحة التي كانت ورشها ومصانعها تتركز في مراكز المدن او على الموانئ²، وكما اسلفنا فالجزائر كانت دولة شبه مستقل، فلم تكن خاضعة لنفوذ الدولة العثمانية الا اسمياً، فقد كانت دولة معترف بها من قبل الدول الاخر، فهذا الكاتب الفرنسي شارل جوليان، يذكر في كتابه الموسوم (تاريخ شمال افريقيا) عن الاستقلال الذي كانت تتمتع به الجزائر قائلاً: (لقد انسلخت ولايتنا الجزائر وتونس في القرن السابع عشر عن الدولة العليا كل الانسلاخ.. فصارت للجزائر حكومتها المستقلة التي لايربطها بتركيا الا الرابطة الروحية التي تربط كل امم الاسلام بخليفة المسلمين، فكان للجزائر من الحرية السياسية اكثرها لأي دولة من الممتلكات البريطانية المستقلة في الوقت الحاضر)³، ومما يؤكد تمتع الجزائر بالحرية السياسية، عقدها لمجموعة من التحالفات الودية مع مجموعة من الدول، ففي العام (1795) عقدت معاهدة مع الولايات المتحدة الامريكية، اما فرنسا التي لم تبرح ان تؤكد ان الجزائر جزءاً منها، فترجع علاقتها مع الجزائر الى عام (1564) تحديداً حيث كانت تربطها علاقات مع الجزائر واستمرت هذه العلاقات حتى اندلاع الثورة الفرنسية الكبرى عام (1789)، فبعد هذا التاريخ توسعت علاقاتها الاقتصادية، فنجدها فرنسا تستجد بالجزائر، ولأكثر من مرة، لتمدها باحتياجاتها من المواد الغذائية بعد نجاح الثورة، لتصل ديون فرنسا بعد اقل من عشرة اعوام على قيام الثورة وتحديداً عام (1797) الى ملايين الفرنكات الذهبية⁴، فضلاً عن هذا الجانب فقد كان للجزائر دوراً لاينسى في حماية السفن الاوربية التي كانت تمخر عباب البحر الابيض المتوسط سواء للسفر او للتجارة، فكانت مهمتهم تتحدد بحماية هذه السفن من القرصنة، فالقرصنة ظاهرة قديمة ترجع الى عصور بعيدة، ولكنها عادت وبرزت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وممارستها دول عدة منها فرنسا والبرتغال وهولندا، اما الجزائريون الذين كانوا يمارسون القرصنة ايضاً، فقد اعتمدت عليهم الدول الاوربية في صد هجمات القرصنة على الاساطيل الضخمة مقابل دفع اتوات لهم وتميز الجزائريون عن غيرهم من القرصنة بأنهم كانوا أكثر إنسانية⁵، فهم يكتفون بأخذ الفدية من الاسرى مقابل اطلاق سراحهم، دون الضغط عليهم او تسخيرهم بإعمال شاقة، على العكس تماماً من معاملة الفرنسيين للأسرى الجزائريين، وهذا ما اكده الكاتب (شارل جوليان) بقوله: ((ان الاسرى الذين كانوا يسخرون في تجديف السفن كانوا يعانون سوء التغذية والتهديد المستمر، ولكنهم مع هذا كانوا احسن حالاً من البربر⁶) الذين يأسرهم الفرنسيون ويسخرونهم في سفنهم وكانوا يدمغون بالحديد المتوهج، اما الفرنجة من اسرى الجزائريين فلم يعاملوا بمثل هذه المعاملة فقد كانوا يقومون بشعائرهم الدينية في حرية تامة))⁷، ان هذه التصرفات مع الاسرى العرب من قبل فرنسا تؤكد ان سياسة فرنسا التعسفية والاستعمارية لم تكن وليدة الاستعمار عام 1830، بل سبقته بسنوات بعيدة بدأت فرنسا سياستها الممهدة لاحتلال الجزائر عندما رفعت شعاراً اوحى من خلاله ان الجزائر جزءاً من فرنسا ولن ترجع للحظيرة العربية الى الابد، وحتى تحقق هذا الشعار، بدأت الاعداد لخطه استعمارية قائمة على مرحلتين، الاولى اشعار الجزائريين بان ارض فرنسا هي الام، والجزائر جزء منها، اما المرحلة الثانية وهي الاكثر خطورة، فتركز بالعمل على تطبيق سياسة الادمج لدمج الجزائر مع فرنسا الام، وحتى تبرز اهدافها للقدوم الى الارض الجزائرية اندفعت بدوافع متعددة لتبرر احتلالها، من ابرزها:

1- الدوافع السياسية

شهدت الحقبة الزمنية الممتدة من اواخر القرن الثامن عشر حتى بداية القرن التاسع عشر انحساراً واضحاً في عدد المستعمرات الفرنسية، خاصة بعد طردها من بعض المستعمرات اثر خسارتها الحربية كما هو الحال في الهند، وكندا ومصر، ناهيك عن الهزائم المتلاحقة التي منيت بها في اوربا، الامر الذي دعا قادتها السياسيين والعسكريين للتفكير بإيجاد ارض جديدة تعيد لهم هيبته العسكرية، خاصة وان بريطانيا كانت قد سيطرت على الهند ومناطق اخرى في اسيا وافريقيا الغنيتين بالموارد الطبيعية، يضاف الى ذلك كله ان مؤتمر فيينا المنعقد عام 1815 دعم نوايا فرنسا الاستعمارية لاحتلال الجزائر تخلصاً من نواياها الاستعمارية في القارة الافريقية، هذه الدوافع مجتمعة شكلت دافعاً لفرنسا للتفكير الجدي باحتلال الجزائر⁸.

2- الدوافع الاقتصادية

شهد العالم اثر الثورة الصناعية، خاصة بداية القرن التاسع عشر تنافساً استعمارياً شديداً من اجل الحصول على المواد الخام للصناعات الحديثة الناشئة اثر هذه الثورة، هذا من جانب، ومن جانب اخر اشنت التنافس حول ايجاد اراضي جديدة لتصريف منتجاتها الصناعية الجديدة لذلك كانت الجزائر واحدة من المناطق العربية التي سعت فرنسا لاحتلالها تحقيقاً لإغراضها الاقتصادية، فهي اولاً مركز للحصول على المواد الخام، وثانياً سوقاً جيداً لتصريف منتجات فرنسا الصناعية، ومن الجدير بالذكر ان فرنسا فكرت باحتلال الجزائر تحقيقاً لمطامعها الاقتصادية، في الوقت الذي كانت الجزائر تمون فرنسا، خلال حروبها النابليونية، باحتياجاتها من المواد الغذائية، وخاصة الحبوب فضلاً عن قيامها باستدانة اموال طائلة من الجزائر لسد نفقاتها المتصاعدة، حتى بلغ مجموع القروض المقدمة لفرنسا عام (1819) حوالي (18) مليون فرنكاً ذهبياً⁹ اما فرنسا من جانبها، وكخطة لإنجاح مخططها الاستعماري نجدها تصم اذنيها على مطالبة الحكومة الجزائرية المتكررة لسداد ديونها فضلاً عن العوامل السالفة الذكر، يقف عامل اقتصادي آخر، وربما تشترك العديد من الدول الاستعمارية الراغبة بالسيطرة على مناطق الوطن العربي في هذا العامل، وهو الاعداد المتزايدة لنفوس فرنسا، الامر الذي دفع الحكومة بالتفكير الجدي لإيجاد مكان لإيوائهم هذا من جانب، وإيجاد فرص عمل لهم من جانب آخر، لذلك وجدت في الاراضي الجزائرية ضالتها لتحقيق هذا الهدف¹⁰ وهذا هو ذات الهدف الذي تدرعت به عدد من الدول الاستعمارية مثل ايطاليا عندما اقدمت على احتلال ليبيا عام 1911.

3- الدوافع الدينية

مسعود مجاهد، الجزائر عبر الاجيال، ط2، القدس، دت، ص56 (2)
 عبد الحميد مسعود الجزائري، حقيقة الجزائر، القاهرة، دت، ص20 (3)
 مسعود مجاهد، المصدر السابق، ص54 (4)
 لعب العامل الديني دوراً هاماً في هذا الجانب، فالجزائريين غالبيتهم من المسلمين المتمسكين بتعاليم الدين الاسلامي في التعامل مع الاسرى، وفقاً للشريعة الاسلامية السمحة (5)
 يقصد بالبربر سكان الجزائر، حيث كانوا يطلقون هذه التسمية على سكان المغرب (6)
 مسعود مجاهد، المصدر نفسه، ص55 (7)
 احمد اسماعيل راشد، تاريخ اقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 2004، ص133 (8)
 كنعان الزبيدي وعبد الاله الجلي، الجزائر الثائرة، مطبعة الامة، بغداد، 1958، ص17 (9)
 احمد اسماعيل راشد، المصدر السابق، ص134 (10)

لم يتوقف طموح القادة الاوربيين بإعادة حلم الحروب الصليبية، بل بقي هذا الحلم يراود الدول الكبرى ومنها فرنسا، التي كانت تحلم بالتحكم الديني من خلال بسط نفوذها المسيحي على كامل الاراضي الافريقية، وما قول وزير الحربية الفرنسية (دوكلير مونتانيار)، ابان الحملة على الجزائر، عندما قال: ((كان احتلالنا للجزائر، اخذاً بالثأر والاهانة التي لحقت بممثل فرنسا¹¹))، وإرضاء للمسيحيين، وذلك بإبادة المسلمين اشد اعداءهم طغياناً)) وبضيف في ذات الموضوع مخاطباً الملك شارل العاشر ((مولاي... انها الارادة الالهية التي قضت ان تنادي سلسل القديس لويس¹²) ليأخذ الثأر وليقتص للدين والانسانية، وليغسل العار الذي لحق به هو بالذات))¹³) اما ملك فرنسا، شارل العاشر، فقد ودع جيوشه المتجهة لاحتلال الجزائر، بقوله ((ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الفرنسي، سيكون بمساعدة العلي القدير، لفائدة المسيحية كلها))¹⁴). هذه الاقوال التاريخية تعطينا صورة واضحة عن الاسلوب الاستعماري البغيض الذي لجأت اليه فرنسا، عندما قدمت العامل الديني لتبرر احتلالها لبقعة عربية الاصل، بينما كانت مندفعة بعوامل اقتصادية توسعية، ولم يكن العامل الديني إلا غطاءً تستتر به. اما الجنرال (دوبومون) قائد الحملة العسكرية البرية على الجزائر، فقد كان اكثر وضوحاً لتحقيق الحلم الفرنسي عندما خاطب المبشرين الذين رافقوا حملته بقوله: ((لقد جنتم لتعيدوا معنا فتح الباب على مصرعين، لتدخل المسيحية افريقيا، وأنا نأمل أن تعم ديانتنا هذه الربوع قريباً، لنعمل من جديد على ازدهار المدينة التي انطفأ نورها منذ عدة قرون))¹⁵). وعندما نتأمل هذا القول نجد احلام الفرنسيين المتعالية التي ارادت نشر المسيحية على حساب الاسلام الذي انتشر في الربوع الافريقية منذ عدة قرون، فالدول الاوربية كانت تقف بالضد من الدين الاسلامي الذي كانت ترى انه السبب في التخلف المنتشر في المناطق العربية، لذلك اعتقدوا ان نشر المسيحية في هذه المناطق سيعمل على تطورها ومحي التخلف عنها. ان الدوافع السالفة الذكر، كانت كافية بدرجة كبيرة لتفكر فرنسا جدياً لاحتلال الجزائر، ولكنها كانت تنتظر الوقت المناسب، فكان تاريخ 30 نيسان 1827، الوقت المناسب عندما قام باي الجزائر (حسن باشا) بضرب القنصل الفرنسي (بيير ديغال) بمروحة الذباب التي كان يحملها¹⁶)، اثر مشادة كلامية بينهما تتعلق بتسديد فرنسا لديونها المتركمة للجزائر، فكانت هذه الحادثة الذريعة المناسبة لتتقدم الجيوش الفرنسية وتحتل الجزائر، فبدأت اولاً بفرض حصار على ميناء الجزائر في حزيران من العام 1827، استمر الحصار حتى عام 1829 عندما حملت الريح سفينة فرنسية الى الساحل الجزائري، وفي منطقة محرمة، فأطلق عليها النار¹⁷)، فعادت فرنسا هذا العمل اعتداءً واضحاً عليها وطالب الشعب حكومة فرنسا بعمل شيء ايجابي ازاء هذا الحادث، فقررت الحكومة في 25/ايار/1830 التقدم بحملة نحو الجزائر بقيادة (دي بورمون) ضمت (103) سفينة و (225) مركباً و (37) الف جندي و (20) الف رجلاً من رجال البحرية¹⁸). ان حادثة المروحة كانت الذريعة المناسبة لتحقيق فرنسا من خلالها هدفها الاستعماري، وهذا ما اكده السياسي الالمانى الشهير (مترنيخ) عندما قال: ((لايصرف 100 مليون فرنك ويعرض اربعين الف رجل للموت من اجل مروحة))¹⁹).

بعد دخول القوات الفرنسية للجزائر بدأت بتطبيق سياستها الهادفة لتحقيق امرين مهمين:

1- استيطان الاراضي الزراعية وجعلها ملكاً للفرنسيين من خلال استخدام عدد كبير من الفرنسيين، حتى تصبح الجزائر ارضاً فرنسية بكافة تفاصيلها، وبمرور الوقت تبتعد عن طابعها العربي الاسلامي.

بدأت فرنسا بتحقيق هذا الامر عندما استولت على اراضي الدولة العثمانية وقامت بتوزيعها فضلاً عن الاراضي التي صادرتها من المواطنين على رعاياها، وإحكامها في السيطرة على اكبر قدر من الاراضي قامت عام 1843 بوضع اراضي الاوقاف او ما كانت تعرف باسم (الحبوس) تحت ادارتها وأخذت تحت المستوطنين لشرائها، بعد ان سمحت ببيعها²⁰). وفي تشرين الاول من العام 1844 اصدرت قراراً يقضي بمصادرة الاراضي العائدة لأسرة الداى حسن، الحقها اصدار قرار في مايس 1846 يقضي بمصادرة الاراضي التي تسيطر عليها القبائل الرحالة وتستغلها للرعي، بحجة انها غير مستثمرة، او ان القبائل لا تستغلها لذلك بدأت الشركات الاستثمارية وكبار التجار التزاحم لشرائها بحجة اقامة قرى زراعة للمستوطنين الفرنسيين، لكنهم استغلوا لمصالحهم الخاصة بإقامة مشاريع اقتصادية²¹). بالرغم من سعي فرنسا الدؤوب في السيطرة على اكبر قدر ممكن من الاراضي الزراعية الا انها واجهت عقبة امامها تمثلت بقلعة الرعايا الفرنسيين الذين يقومون بامتلاك هذه الاراضي، او حتى مجرد الاستيطان فيها، لذلك بدأت بالإعداد لحملة دعائية مكثفة بجذب المهاجرين للجزائر، تمثلت هذه الدعائية لتقديم عروض مغرية مثل حق امتلاك الاراضي، تقديم القروض الميسرة، منح الجنسية الفرنسية، على اعتبار ان هذه الدعاية لم تشمل الفرنسيين فقط، بل كانت موجهة لعموم الاوربيين، وقد نجحت فرنسا في هذا هدفها هذا فبدأت اعداد لأبأس بهم من فقراء اسبانيا وايطاليا التدفق الى الاراضي الجزائرية، املاً بالحصول على العروض المغرية التي وعدت فرنسا بتحقيقها لهم. وربما كان سبب قدوم المهاجرين من هاتين الدولتين تحديداً، ان الكثير منهم ترجع اصولهم وجذورهم الى الوطن العربي وخاصة اسبانيا، خاصة اذا ما عرفنا انها ولقترات ليست بعيدة كانت تابعة للسيادة العربية، وحتى بعد انتهاء الوجود العربي فيها عام 1492م، لكن بقي فيها عدد غير قليل من العرب، لذلك وجدوا في العروض المقدمة من قبل فرنسا فرصة مناسبة للعودة الى الاراضي العربية وبذلك تشكلت الموجة الاولى من المهاجرين الفرنسيين للجزائر²²). استمر تدفق المهاجرين الاجانب الى الجزائر وبعاد متزايدة، ففي العام 1871 قامت ثورة جزائرية كبرى ضد الاستعمار، اسفرت عن انتصار فرنسا التي قامت وكجزء من معاقبة الثوار بمصادرة حوالي مليونين و (600)

يقصد ضربه بمروحة باي الجزائر عام 1827 (11)

الملك لويس التاسع هو قائد الحملة الفرنسية على مصر، لكنه وقع اسيراً خلال الحملة، وأطلق سراحه بعد دفع الفدية، وعلى اثر ذلك تعهد بعدم القيام بحملة اخرى تحت اسم الدين، لكنه (12)

سرعان ماكنق وعده فقاد حملة اخرى على تونس، كان من نتيجتها وفاته، اثر مرض ألم به هو وعدد كبير من قادة جيشه

احمد الخطيب، الثورة الجزائرية، دار العلم للملايين، بيروت، 1958، ص42 (13)

ابو القاسم محمد كرو، ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي، الطبعة الثانية، تونس، 1956، ص42 (14)

احمد الخطيب، المصدر السابق، ص42 (15)

يعتقد الكثير خطأ ان حادثة المروحة الشهيرة وقعت عام 1830، لان في هذا العام وقع الاحتلال الفرنسي المباشر، والأصح ان الحادثة وقعت عام 1827 (16)

عمرو احمد عمرو وعبد الرؤوف احمد عمرو، احمد بن بيلال ابن شمالي افريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دت، ص55 (17)

عبد العظيم رمضان، الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة، القاهرة، 1985، ص95 (18)

علي الشلقاني، ثورة الجزائر، دار الهناء للطباعة والنشر، القاهرة، 1956، ص13 (19)

هند فتال ورفيق سكري، المصدر السابق، ص266 (20)

المصدر نفسه، ص266؛ احمد بن بيلال، المصدر السابق، ص60 (21)

ابو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1930-1945، الجزء الثالث، القاهرة، 1975، ص14 (22)

الف هكتار دفعة واحدة، من الاراضي الزراعية وقامت بمنحها للمهاجرين الفرنسيين الذين قدموا اثر طردهم من مقاطعتي الالزاس واللورين الفرنسيتين بعد الهزيمة الكبرى التي منيت بها فرنسا امام الجيوش الالمانية عام (1871)، وصادف في العام ذاته ان قامت فرنسا بمنح اليهود المقيمين في الجزائر الجنسية الفرنسية، اعقبها وبعد عشرة اعوام تحديداً أي في عام (1881) قامت بإصدار قانون يقضي بمنح الجنسية الفرنسية لكل ابناء الاجانب المولودون على الارض الجزائرية، انطلاقاً من اعتبار الجزائر ارضاً فرنسية، وبذلك نجحت من خلال هذا القانون بزرع مليون مستوطن من جنسيات عدة على الارض الجزائرية²³(23). استمرت الهجرة الاوربية بالارتفاع النسبي فنجدها ترتفع من (160) الف مهاجر في العام 1856 حتى تصل الى (319) الف مهاجر من فرنسا و (127) الف من جنسيات اوربية متعددة في العام 1936، وقامت بتوفير اسباب الراحة للمهاجرين فقامت ببناء أكثر من (400) قرية²⁴(24) زودتها بالماء والكهرباء ووفرت لها طرق المواصلات البرية فضلاً عن سكك الحديد، وقامت بإقراضهم أموالاً لزراعة هذه القرى²⁵(25). وسعت فرنسا بعد نجاحها نسبياً بالسيطرة على مساحات زراعية واسعة، بالعمل على منع الفلاحين الجزائريين من الزراعة من خلال التضييق عليهم بوسائل شتى، فنجد الجنرال (بيجو) الذي عُين في 29/كانون الاول/1840 قائداً عاماً للقوات الفرنسية يخاطب جنوده قائلاً: ((ليست مهمتكم ان تجروا وراء العرب فهذا غير مجد، ان مهمتكم ان تمنعهم من ان يبذروا او يحصدوا او يرعوا... ان الحرب التي سنقوم بها ليست حرباً تعتمد على طلقات البنادق وإنما هي أن نحرم العرب من مواردهم التي تنتجها ارضهم.. اذهبوا اذن واقطعوا القمح والشعير))²⁶(26) وعرفت هذه السياسة باسم (الارض المحروقة) التي طبقها الفرنسيون على مساحات واسعة من الاراضي الجزائرية. وسعت الشركات الاستعمارية الفرنسية بالاستحواذ على (100) الف هكتار من اجمل الغابات خاصة بعد ان اعلنت فرنسا ان الغابات ملكاً للدولة، وبدأت باستغلال منتجاتها مثل الخشب والحلفاء²⁷(27) لحسابها الخاص، فضلاً عن الغابات، فقد قامت فرنسا ومنذ العام 1878 بإنتاج النبيذ في الجزائر التي اشتهرت بزراعة الكروم، بالرغم من عدم استغلاله محلياً باعتبار الجزائر دولة اسلامية، وذلك اثر الوباء الذي اصاب حقول الكروم في فرنسا في العام ذاته²⁸(28). اثر هذه السياسة الاستعمارية تضاعفت نسبة ما يمتلكه الفرنسيون من الثروة الزراعية، فوصلت الى (65%) في العام 1918²⁹(29)، وبالمقابل تناقص عدد الفلاحين الجزائريين، خاصة مع نهاية الاستعمار الفرنسي لتتخفص النسبة من (538) الف الى (498) الف للأعوام (1948-1954³⁰30)، خاصة اذا ما علمنا ان الجزائر كانت تصنف من الدول الزراعية، وكنتيجة طبيعية لهذا الانخفاض فقد تدنى المستوى المعيشي للفرد، مما انسحب الى تدني او انخفاض استهلاك الفرد الواحد للمواد الغذائية، وذلك بطبيعة الحال سينسحب على الوضع الصحي للفرد الذي عانى من مشاكل صحية، خاصة سوء التغذية، وشكل الاطفال النسبة الاكبر للإصابة بهذا المرض بعد سنوات من الاحتلال، اعترفت فرنسا، ومن خلال لجنة فرنسية زارت الجزائر عرفت باسم (لجنة تحقيق افريقيا) التي كان هدفها التحقيق بما عملته فرنسا بمجال السيطرة على الاراضي الجزائرية، اعترفت بقيامها بإعمال عدة لتحقيق احد اهدافها، فقد جاء على لسان احد القادة الفرنسيين:

((لقد جمعنا املاك المؤسسات الدينية، وصادرنا ممتلكات فئة من السكان كنا قد وعدنا باحترام ملكيتها، بدأنا باستعمال سلطتنا بفرض غرامة (100) الف فرنك... ولقد ذهبنا احبائنا الى ان اجبرنا الملاك السابقين على دفع نفقات هدم منازلهم، بل ونفقات هدم احد الجوامع ... وانتهكنا دون خجل بيوت الله والمقابر والدور وكلها ذات حرمة لدى المسلمين... لقد جاوزنا في البربرية هؤلاء البرابرة الذي جئنا لتمدينهم))³¹(31).

هذا القول يؤكد ان فرنسا ارتكبت اعمالاً وصفها الفرنسيون انفسهم بالبربرية، هدفوا منها تحقيق مطلبهم القاضي باستيطان الارض الجزائرية، اما الهدف الاخر لفرنسا فهو:

2- حكم الجزائر حكماً مباشراً، لادخل للجزائريين فيه، وحتى تحقق هذا الهدف قامت بتقسيم الجزائر ادارياً عام 1845 الى منطقتين:

أ- منطقة شمالية يحكمها مديون فرنسيون.

ب- منطقة جنوبية يحكمها عسكريون فرنسيون.

واستناداً لهذا التقسيم اعلن مجلس النواب الفرنسي في العام 1848 بان الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا وإنها جزء من الوطن الام³²(32) في العام (1870) الحقت الجزائر رسمياً بفرنسا، فبدأ وزير الداخلية الفرنسية بتعيين مدينيين لمحافظة الجزائر باعتبارها احدى محافظات فرنسا، ولاداعي لتعيين حاكم عسكري، لأنها منطقة غير محتلة بل جزء من الوطن الام، وزاد هذا الاجراء من تشديد قبضة الفرنسيين على الجزائر.

اساليب فرنسا الاستعمارية بعد ان اطمنتت فرنسا على تحقيقها هذين الهدفين، من جهتها هي طبعاً، وليس من جهة العرب عموماً والجزائريين خصوصاً، بدأت بتطبيق سياستها الاستعمارية التعسفية ولصعوبة تغطية جميع مفاصل الحياة التي مارست فرنسا فيها اساليبها الاستعمارية من جهة، ولطول الحقبة الزمنية للاستعمار الفرنسي للارض الجزائرية والتي قاربت الـ (130) عاماً، وهي حقبة زمنية تحتاج الى بحوث عدة، وفي جوانب متعددة، ولان البحث يهدف بالأساس أعطاء نبذة ولو بسيطة عن نضال المرأة الجزائرية الذي ركز على شخصية بارزة وهي المناضلة (جميلة بوحيرد)، لذلك سنركز على بعض الشواهد على همجية الفرنسيين، في جزء من مفاصل الحياة.

المصدر نفسه، ص14؛ توفيق اليوزبكي وآخرون، دراسات في الوطن العربي، ص161 (23)23.

ينكر اسم احمد بن بيللا في مذكراته ان عدد هذه القرى تجاوز الـ (800) قرية، وربما وصل العدد الى هذه النسبة في السنوات الاخيرة من الاحتلال، او ربما كانت تسعى لبناء هذا العدد (24)24 ولكنها واجهت مشاكل اقتصادية انتهت عن بناء هكذا عدد خاصة اذا ما علمنا ان فرنسا دخلت في حربين عالميتين خسرت فيهما أموالاً طائلة

توفيق اليوزبكي، المصدر السابق، ص161-162 (25)25.

محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشرق، بيروت، دت، ص254 (26)26 يتصف بمقاومته لدرجات الحرارة العالية، لذلك يكثر في (Sporium Iyemu) الحلفاء: نبات بري ينتمي الى الفصيلة النخلية، عرف قديماً باسم القصب البانيولي، او حشيش الاسبارتو (27)27 المناطق الصحراوية والغابات خاصة صحراء المغرب العربي، وهو ينمو تلقائياً دون تدخل الانسان لانه لا توجد له بذور ولا يمكن ان يزرع الانسان، وله نوعان الاول ذو الالياف الغليظة الذي يستخدم في صناعة الحبال والورق، والثاني ذو الالياف الرقيقة ويستخدم في صناعة القماش وكلف للحيوانات

احمد بن بيللا، المصدر السابق، ص61 (28)28 Anthony G. Cachia, Libya under the second ottoman occupation (1835-911), Tripoli, 1945, p.14q1.

صلاح العقاد، المغرب العربي، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1969، ص171 (29)29.

احمد اسماعيل راشد، المصدر السابق، ص164 (30)30.

علي الشلقاني، المصدر السابق، ص20 (31)31.

احمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص97 (32)32.

اولاً: الدين الاسلامي

ارتكبت فرنسا اعمالاً غير انسانية ضد الدين الاسلامي الحنيف، فهي اولاً، وكما اشرنا سابقاً عند حديثنا عن العامل الديني في الغزو الفرنسي، كانت تسعى لنشر المسيحية في الارض الجزائرية بدلاً عن الدين الاسلامي الحنيف، وتطبيقاً لهذه السياسة، ومع السنوات الاولى للغزو وتحديداً في العام 1830، اعلنت الحاق جميع الاوقاف الاسلامية بممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة، ويكون لها حرية التصرف بهذه الممتلكات، فضلاً عن ذلك فإن أئمة المساجد وسدنتها وقراء القرآن والمؤذنين اصبحوا موظفين لدى فرنسا، يتقاضون رواتبهم من الخزينة الفرنسية، ولم يقتصر الامر على ذلك، بل ان وجودهم بوظائفهم هذه يتحدد بولائهم لفرنسا، وهذا ما أكده احد كبار موظفي الجزائر المدعو (مسيو بوك) في حديث نشر بعد وفاته جاء فيه: ((لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الاسلامي الى درجة اننا اصبحنا لا نأذن بتسمية المفتي او الامام، ألا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني ان ينال أي رقي، الا اذا ما اظهر للإدارة الفرنسية إخلاصاً منقطع النظير))³³. لم يقتصر الامر عند هذا الحد، بل نجد من الشواهد التاريخية ما يؤكد سعي فرنسا لتحويل المساجد الاسلامية الى كنائس مسيحية طمعاً منها بمحو الدين الاسلامي، وما العمل الذي قام به القائد الفرنسي (بيجو) عام 1832 عندما اصر على تحويل اجمل جوامع الجزائر والمعروف باسم جامع (كتشواو) الى كنيسة كاثوليكية، الا دليلاً واضحاً على محاربتهم للدين الاسلامي، فبالرغم من احتجاج السكان ضد هذا العمل، ورغم اقتراح عدد من الجزائريين العاملين في البلدية على تسليمه جامعاً آخر، لكنه وبوقاحته وشراسته التي عرف بها رفض وصرح انه يريد اجمل المساجد.. لأننا الأسياد الظافرون، وأمام صرخات الجميع واحتجاجهم اعطى اوامره العسكرية لاقتحام المسجد الذي اعتصم به (4) آلاف مسلم، كان نصيبهم اطلاقات نارية اردتهم قتلى في بيت من بيوت الله³⁴ (34)، اما القائد (بيجو) فلم يهجمه دماء الأبرياء التي سقطت دفاعاً عن دينها الاسلامي، وإنما كان همه انه حول هذا الصرح الى كاتدرائية عرفت باسم كاتدرائية الجزائر. ازاء هذه الاعمال، طالب مسلمي الجزائر، وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين في العام 1905 بضرورة فصل الدين عن الدولة، وترك الحرية المطلقة للمسلمين لممارسة شعائرهم الدينية اسوة باليهود والمسيح الذين يتمتعون باستقلالية خاصة، لكن فرنسا، وجرياً على عاداتها الاستعمارية ترفض ذلك وبشدة، فما كان من مسلمي الجزائر ألا مقاطعة المساجد التي تحكم فرنسا السيطرة عليها، والقيام بإنشاء مساجد (حرة) جديدة بعيدة عن الرقابة الحكومية الاستعمارية كلفتهم اموالاً وصلت احياناً الى (50) الف جنيه³⁵، وبالرغم من ارتفاع التكلفة في وقت كانت تعاني منه الجزائر من وضع اقتصادي متدهور نتيجة للاستعمار لكن ذلك لم يمنعهم من الحفاظ على وحدة دينهم الاسلامي الذي بقي وحتى الاستقلال الديني الرسمي للجزائر.

ثانياً: فرض الخدمة العسكرية الاجبارية

مع بداية الاحتلال، اعتبرت فرنسا الجزائريين رعايا لها، لذلك قامت بداية القرن العشرين، وتحديداً عام (1912) يفرض الخدمة العسكرية الاجبارية على الجزائريين بصفتهم رعايا فرنسيين، ومع انها اخذت مبدأ البديل المالي الذي كان معمولاً به داخل فرنسا، والقاضي بإعفاء الفرد من الخدمة العسكرية مقابل دفع مبلغ مالي محدد، لكن ذلك لم يخدم غالبية الشباب الجزائري الذي كان يعاني من ضعف الحالة المادية التي حالت دون استطاعته دفع هذا البديل، وان كان قليلاً لذلك وجد الشباب الجزائري نفسه امام خيارين لاتالث لهما، اما الهجرة الى دول الجوار، وبشكل خاص دول المغرب العربي او بلاد الشام، ليكونوا بعيدين عن ملاحقة القوات الفرنسية لهم، او الانضمام اجبارياً في صفوف الجيش الفرنسي³⁶ (36). وبذلك انضم الى صفوف الجيش الفرنسي اعداد ليست بالقليلة من الشباب الجزائري الذي وجد نفسه مضطراً للقتال في ساحات القتال الاوربية عند اندلاع الحرب العالمية الاولى في العام (1914) بصفتهم يمثلون فرنسا، لكن واقع الحال اثبت عكس ذلك تماماً، فالمتتبع للأحوال التي كان يعيشها الجندي الجزائري مقارنة بنظيره الفرنسي في ذات الوحدة العسكرية يجد فارقاً شاسعاً بين الاثنين فالجندي الفرنسي يتمتع بامتيازات خاصة حرم بالمقابل منها الجندي الجزائري الذي كان يعامل معاملة سيئة³⁷ (37)، ومع ذلك كان عليه القتال باسم فرنسا دون أي اعتراض.

ثالثاً: فرنسة الجزائر

دأبت فرنسا منذ قدومها الارض الجزائرية، على جعل الجزائر ارضاً فرنسية من خلال نشر الثقافة والقوانين الفرنسية لتصبح الجزائر جزءاً منها وتبتعد بمرور الوقت عن هويتها العربية والقومية فبدأت سلسلة من الاجراءات لتحقيق سياستها التي عرفت باسم (سياسة الفرنسة) والتي طبقتها في حقب لاحقة في سوريا ولبنان التي فرضت انتدابها عليها بعد الحرب العالمية الاولى، وأول هذه الاجراءات هي:

- 1- احلال اللغة الفرنسية بدلاً عن اللغة العربية في مختلف انحاء الجزائر، والقضاء على كل ماله علاقة بالمقومات العربية، فاعتبرت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للبلاد، وجعل اللغة العربية لغة ثانوية تختار من بين اللغات الاخرى، كلغة ثانية تدرس في المدارس³⁸ (38)، ولم يقتصر منع استخدام اللغة العربية في المدارس فقط، بل تعداه الى منع استخدامها داخل المساجد ايضاً، كنوع من محاربة الدين الاسلامي، على ان مجهودات ابناء الجزائر، وخاصة جمعية العلماء التي تأسست بداية القرن العشرين، حالت دون محو اللغة العربية، من خلال المجهودات التي قامت بها والمتمثلة بإنشاء المدارس القرآنية، التي حددت هدفها بتعليم مبادئ الدين ولغة القرآن، واعتماداً على تبرعات الشعب³⁹ (39).
- 2- اتباع الجزائر لوزارة الداخلية الفرنسية، وليس لوزارة المستعمرات، مما يحقق التبعية المباشرة والاندماج الكامل مع الوطن الام (فرنسا).

- 3- اخضاع المحاكم الجزائرية بوزارة العدل الفرنسية بباريس ثم للحاكم الفرنسي العام منذ العام 1896، مع اختيار قضاة حديثي العهد بممارسة المحاماة، ممن لم تؤهلهم كفاءتهم للخدمة داخل فرنسا، فتم انتدابهم للعمل في الجزائر، فالحكومة الفرنسية لم

مسعود مجاهد، المصدر السابق، ص 356 (33) 33

مسعود مجاهد، المصدر السابق، ص 204 (34) 34

مسعود مجاهد، المصدر السابق، ص 356 (35) 35

احمد اسماعيل راشد، المصدر السابق، ص 148 (36) 36

احمد بن بيلا، المصدر السابق، ص 233 (37) 37

صلاح العقاد، المصدر السابق، ص 170 (38) 38

محمود مجاهد، المصدر السابق، ص 239 (39) 39

تكن تسعى لتطبيق القانون قدر ماكانت تسعى لتنفيذ سياستها الاستعمارية داخل الجزائر لذلك شرعت قوانين خاصة بالجزائريين، رغم انها اخضعت محاكمها للقوانين الفرنسية، عرفت باسم Gode de Lindiginant وهي بمثابة استثناءات تتحول بمقتضاها السلطات القضائية الى السلطة الادارية تتضمنها رفع ضمانات معينة تتعلق بحرية الفرد الجزائري، ومن هذه الاستثناءات على سبيل المثال، لا الحصر نورد قسماً منها:

- 1- سلطة الحاكم الذي تخوله توقيع اوامر العقوبات ضد المناضلين ومن دون محاكمة، بحجة الحفاظ على الامن العام.
- 2- الاعتماد على مبدأ المسؤولية الجماعية عن وقوع جنائية او عمليات قتالية في احد الاحياء العربية.
- 3- السماح للإدارة الفرنسية بحبس الجزائريين، او مصادرة اموالهم وبدون حكم قضائي.
- 4- الزام الجزائريين بحمل ترخيص خاص يخولهم التنقل بين مناطق الجزائر (40).

رابعاً: تردي الأوضاع الاجتماعية

عانى المجتمع الجزائري من تردياً ملموساً في نواحي الحياة الاجتماعية كافة في الحقبة التي تلت الاحتلال الفرنسي عام 1830، فانتشرت الأوبئة والأمراض، ولعل ابرزها مرض السل الذي راح ضحيته عدد كبير من ابناء الجزائر، فنسبة المتوفين وصلت الى ثلاثة اضعافها في اوربا، ووقف عامل الضعف الاقتصادي وراء نقص التغذية الذي ادى بالتالي لنفسي عدد من الامراض، فالنقص الحاد بالتغذية تسبب بوفاة (5%) من الاطفال، وقبل بلوغهم عمر الخمس سنوات، ولم تتجاوز نسبة المستفيدين من الخدمات الصحية (60%)، اما المساكن فقد افتقرت لأبسط الشروط الصحية فيما يتعلق بمنافذ التهوية او كثافة القاطنين فيها التي وصلت في قسبة الجزائر (2000) نسمة في الهكتار (41⁴¹) الواحد، فالدار الواحدة كان يتقاسم السكن فيها عدة عوائل تصل احياناً الى عشرة عوائل (42⁴²). اما عن الوظائف الحكومية، فقد اصبحت حكراً على المستعمرين فقيل اعلان الثورة الكبرى عام (1954) كان عدد سكان الجزائر حوالي (12) مليون نسمة، منهم مليون ونصف شخص عاطل عن العمل، ولكن في الاتجاه المقابل نجد ان الاوربيين الذين لم يتجاوز عددهم (850) الف نسمة، كانوا يسيطرون على كافة الوظائف الحكومية بصورة تقريبية فمن مجموع الوظائف البالغ عددها (26) الف وظيفة كانت حصة ابناء الجزائر في هذه الوظائف التي تخص بلادهم فقط (4) آلاف وظيفة، وهي نسبة ضئيلة جداً لا تتناسب مع عدد السكان البالغ (12) مليون نسمة. ولم يعرف الفرنسيون مصطلحاً اسمه (البطالة)، الامر الذي اضطر حوالي (400) الف جزائري للهجرة للدول الاوربية (43⁴³) بحثاً عن وظائف يجنون منها اموالاً تسد رمقهم ورمق عوائلهم التي اضطرت للهجرة الى الدول القريبة مثل تونس والمغرب التي وصل عدد اللاجئين فيها حوالي (300) الف شخص معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وحوالي (200) الف في مراكش، عاشوا في ظروف شديدة القسوة فالكثير منهم كان بلا مأوى الامر الذي عرضهم للأوبئة والأمراض الفتاكة التي ذهب ضحيتها عدد كبير منهم (44⁴⁴). ولسوء الاوضاع التي كان يعيشها اللاجئين الجزائريون في دول الجوار فقد قامت الدولة العربية بتوجيه نداء الى منظمة الهلال الاحمر الدولية يوضحون فيه صعوبة الظروف المعاشية والصحية والاجتماعية للجزائريين، وضرورة تقديم الدعم المادي والمعنوي لهم بما يمكنهم مواجهة هذه الظروف العصبية (45⁴⁵). اما التعليم الذي اعتاد عليه ابناء الجزائر، ومنذ قرون عديدة بفضل الكتابات الملحقة بالمساجد والزوايا والتي حصرت مهمتها بتعليم النشء الجديد اصول الدين واللغة وقد حققت هذا الهدف بفضل اعدادها الكثيرة والمنتشرة في بقاع الجزائر، فقد وصل عددها عشية الاحتلال الفرنسي مايقارب (3000)، ولكنها بدأت بالتناقص حتى انتهى وجودها بفعل الاستعمار الذي قام بتدمير وهدم مراكز الكتابات في المساجد والجوامع ليطبق سياسة (التجهيل) الى جانب سياسة (التفجير) التي كانت شعاراً سعت فرنسا لتحقيقه بالجزائر، لكنها لم تحقق هذا الشعار بفضل اصرار الاهالي الذين مابرحوا يتعلمون سراً في بيوتهم، حتى اضطرت فرنسا في العام 1883 لفتح ابواب المدارس، التي كانت تحت اشرافها المباشر، امام ابناء الجزائر ولكن التعليم لم يكن عربياً بل كان فرنسياً بحثاً وذلك لإنجاح سياسة الفرنسية التي كانت تسعى لتطبيقها على عموم المناطق التي كانت تحكم سيطرتها عليها. بلغت نسبة المتعلمين الفرنسيين في المدارس الابتدائية 100% في حين لم تتجاوز هذه النسبة الـ (8%) لعموم ابناء الجزائر، اما التعليم الثانوي فالوضع يشكل خطراً حقيقياً، فمن مجموع من هم بسن التعليم الثانوي، لا يمكن سوى (10%) فقط الالتحاق بالمدارس الثانوية، فمن مجموع (49) مدرسة ثانوية يتخرج فقط (5300) طالب و (952) طالبة من اصل (34768) طالباً غالبية من الفرنسيين. وإذا ما وصلنا بسلم التعليم لمراحله العليا، أي في الجامعات فنجد الهوة الواسعة بين الجزائريين والفرنسيين، فمن بين (5146) طالباً في كليات جامعة الجزائر، لا يتجاوز عدد ابناء البلاد يوم اعلان الثورة عام 1954 الـ (557) طالباً جزائرياً فقط (46⁴⁶) فالنسبة تساوي 1: 227 طالب اوربي. ومن استقرارنا للأوضاع الجزائرية نجد عوامل عديدة تقف وراء هذه النسبة المتدنية فالفقر اول الاسباب ان لم نقل اهمها، ويلحق بالفقر عامل التمييز العنصري الذي مارسه فرنسا بقيامها بخلق ابواب الوظائف امام العرب الامر الذي عرّفهم عن الالتحاق بالجامعات لعدم جدواها مستقبلاً، وبالتالي لاستغراب ان عرفنا ان الامية تجاوزت نسبتها الـ (88%) بين ابناء الجزائر ان الاحصاءات السالفة الذكر تتعلق بالحقبة الزمنية قبيل اعلان الثورة وذلك لنضع الصورة واضحة عند التحدث عن مناظلتنا (جميلة بوحيرد) في الصفحات اللاحقة هذا من جانب، ومن جانب آخر ان التعليم العالي لم يعرف إلا قبل هذه الحقبة بزمن قليل لأسباب متعددة نذكر منها على سبيل المثال، لا الحصر، مايتعلق بالبنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري الذي كان يعاني من تخلفاً واضحاً في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي وبالتالي لم تكن هناك شريحة جاهزة من الطلبة حتى تلتحق بالجامعات هذا من جانب، ومن جانب آخر، ان المستعمر الفرنسي نفسه لم يكن يشجع فتح جامعات داخل الجزائر، لان نسبة كبرى من الفرنسيين كانوا يكملون تعليمهم العالي خارج الجزائر، وتحديداً في فرنسا او دول اوربية اخرى، كل هذا وغيرها من الاسباب تفسر لنا، وبوضوح التدني في نسبة الملتحقين من ابناء الجزائر في الجامعات او الكليات.

40(40) Piquet, V. L'Algerie Francaise paris 1930. Les Probemes des Protctorats, Recueil d'Artocles, paris ,1953, P.299.

الهكتار = 10 فدان = 10 آلاف متر مربع (41)

كتعان الزيدي وعبد الاله الجليبي، المصدر السابق، صص 12-14 (42)

المصدر نفسه، ص 12؛ احمد اسماعيل راشد، المصدر السابق، ص 165 (43)

سهاد عبيد عطوان الجبوري، الموقف الرسمي لأقطار المغرب العربي من الثورة الجزائرية 1954-1962، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، 2005، (44)

د.ك.و، مجموعة قرارات مجلس الجامعة ق(1540/ د.ع.3)، ج7، في 8/10/1959، ص 116 (45)

مسعود مجاهد، المصدر السابق، ص 352؛ هند فتال ورفيق سكري، ص 270 (46)

خامساً: اساليب التعذيب الفرنسية سارت فرنسا، ومنذ دخولها للجزائر، على فلسفة خاصة تتلخص بان الفرنسي كان يؤمن بأن الفرد الجزائري هو جنس لا يستحق الحياة، جنس تجب ابادته لكي يحل محله جنس يستحق الحياة⁴⁷ وهذه الفلسفة تفسر لنا الاعمال الوحشية التي ارتكبتها فرنسا اثناء احتلالها للجزائر، ومنذ العام 1830 حتى اعلان الاستقلال في العام 1962، وهذه الفلسفة هي ذاتها التي طبقتها القضاء الفرنسي فالمحاكم الفرنسية تعتبر كل شخص جزائري انسان مشبوه، والإنسان المشبوه لا بد ان يكون مجرمًا، لذلك لا بد ان يقدم للمحاكمة لمحاكمته، ودائماً تكون نتيجة المحاكمة صدور قانون الاعدام وهذه الفلسفة البسيطة لدى الفرنسيين تفسر لنا الاعتقالات الجماعية التي تكاد تحدث يومياً في الجزائر، والتي لا يفرق فيها بين الصغير والكبير، بين الرجل والمرأة، فالمشتبه به، وحالما يتم اعتقاله يقتل بتهمة الفرار، واذا لم يقتل وقت اعتقاله، يتم تعذيبه حتى يصدر قراراً باعدامه، او يموت جراء القسوة في التعذيب⁴⁸ بدأت اساليب التعذيب الفرنسية مع بداية الاحتلال الفرنسي، ففي الاعوام 1839-1848، وكمخطط لاستئصال السكان الاصليين للجزائر، قام الجنرال (بيجو) الذي عرف بوحشيته وقسوته بتطبيق حرب الابدان التي راح ضحيتها عدد كبير من ابناء الجزائر، وبعد الاعتراض على الاثار السلبية لهذه الحرب تمت مناقشتها في المجلس الفرنسي، وقد فرسها رئيس الحكومة في تلك الحقبة المارشال (سولت) بأن هذه جزء من اعمال الحرب خاصة وانهم في افريقيا، وربما تعد هذه الاعمال وحشية لو كانت ترتكب في اوربا⁴⁹ وهذا الكلام يفسر لنا الفلسفة التي كانت تسير عليها فرنسا باعتبار ابناء الجزائر اشخاص مشبوهين، فضلاً عن احتقارها لجنسيتهم التي تعد ارتكاب الاعمال الوحشية ضدها جائز، ومحرم على ابناء جلدتها من القاطنين في القارة الاوربية، وهذا ماسوف نلمسه من استعراضنا لبعض من اعمال فرنسا اللا انسانية والتي ارتكبتها طوال حقبة احتلالها للجزائر. واول هذه الاعمال اللا انسانية هي الاعمال التي كان يرتكبها الجنرال (بيجو) ففي العام 1841، وفي مقاطعة (وهران) تحديداً بقي الجيش الفرنسي يقاتل لفترة طويلة لغرض تدمير ممتلكات القائد الثوري (عبد القادر الجزائري)، فاعتمد الجيش في عملياته على (صيد الرجال) من خلال ابادته قبائل كاملة باستخدام الدخان، حتى ان القائد بيجو وضع جائزة لكل جندي يجلب له رأساً عربيّة مقطوعة، وهذا ما أكدّه الجنود الفرنسيون انفسهم، فقد كتب احدهم في مذكراته ((قطعت رأسه ومعصمه الايسر وصلت الى المعسكر احمل رأسه على رأس الحربة ومعصمه معلقاً بسوار البندقية.. تلك الطريقة التي يجب ان تشن بها الحرب على العرب، يجب قتل الرجال حتى سن الخامسة عشر وسي جميع النساء وخطف الاطفال وتفرغ المساكن منهم وترحيلهم الى أي مكان خارج الجزائر، وبكلمة اخرى يجب سحق جميع الذين لا يركعون تحت اقدمنا كالكلاب...))⁵⁰ وهذه السياسة كانت لها ابعاد اخرى تتمثل بسعي فرنسا الجاد بالقضاء على الشعب الجزائري وإنقاص عددها بشتى السبل والوسائل، ليحل محلهم ابناء جلدتها سواء من الفرنسيين، او الاوربيين لتغدو الجزائر مستقبلاً ارضاً فرنسية الطابع والسكان. وفي العام 1852، وبعد ان ثار ابناء واحة (الزعاوشة) ضد الاستعمار المغتصب لأراضيهم، قامت القوات الفرنسية بالتصدي للثوار بحرب لا يعترف بها القانون الدولي او العرف الانساني فاشهرت سيوفها وقطعت رقاب النساء والأطفال والشيوخ، بل حتى الحيوانات لم تسلم من وحشيته وأحرقت المزارع، وبعد قتال عنيف بين الطرفين، بين طرف استخدم اساليب محرمة وطرق قتال غير شريفة، وطرف آخر قاتل حياً بأرضه، انتهت المعركة بمحو الواحة كلها، فلم يبقى دليل على وجودها، وهذا ما ارادته فرنسا التي وصل الامر بها ان قامت بإطلاق اسم هذه الواحة على احد شوارع العاصمة فرحاً بالانتصار الذي حققته فيها، خاصة بعد ان استطاعت بأسلحتها الفتاكة ألقاء القبض على زعيمها (ابو زيان) وتنفيذ حكم الاعدام فيه، والتنكيل بجثته على مري من الناس⁵¹ لم تكن هذه الحادثة آلا واحدة من سلسلة حوادث لاحقة، فقد كتب احد قادة الجيش الفرنسي قائلاً: ((لقد كانت التسليحة الوحيدة التي استطيع ان اسمح بها للجنود اثناء فصل الشتاء هي السماح لهم بغزو القبائل المعادية))⁵² ان عملية سفك دماء الارواح الشريرة كان هدفاً يسعى الفرنسيون لتحقيقه، فكانت بمثابة صفقة رابحة سعوا دائماً لتحقيقها انها حقاً لمسألة مخزية بحق الانسانية التي وقفت صامتة امام هذه المجازر الوحشية التي لا يستطيع أي عقل بشري ان يستوعبها ولا تقبل أي نفس حرة حصول هذه الاعمال التي عذها الفرنسيون من جانبهم وسام فخر يرفعوه على صدورهم، وهذا ما أكدّه الملك الفرنسي (شارل العاشر) عندما قال صراحة: ((لقد اعتدنا دون أي مراعاة على حرمة الاضرحة والزوايا والمساجد، وعلى المنازل الخاصة التي تعتبر مقدسة عند المسلمين.. لقد ابدنا في مذابح عامة، لمجرد الشك طوائف عديدة من السكان، تبين فيما بعد انها كانت بريئة مما اتهمنا به، ولقد حكمنا جماعة من وجوه القوم وإشراف الأمة ماكان لهم من ذنب الا انهم تقدموا امام بطشنا.. ووجدنا جلادين منا، يقومون بتنفيذ تلك الاحكام))⁵³ أتوجد حقيقة اكثر من هذا القول، بل أيجاد شاهد على وحشية الاستعمار اكثر من هذا الاعتراف الصريح الذي سجله الفرنسيون بأنفسهم على استخدامهم الوحشية، والقمع ضد ابناء الشعب الجزائري، لقد اكد القادة الفرنسيون انفسهم صحة مقاله ملكهم، عندما رفع اعضاء لجنة فرنسية (لجنة تحقيق افريقيا) عينهم الملك عقب احتلال الجزائر، تقريراً جاء في بعض نصوصه ما يؤكد وحشية تعاملهم من الشعب الجزائري وأساليبهم اللا انسانية فقد قال احد الاعضاء:

((لو يقف الانسان لحظة متأملاً الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى ان سيره لم يكن مخالفاً للعدالة فقط بل كان يخالف العقل ايضاً، حيث اننا على حساب استسلام شريف وعلى حساب ابطس حقوق الشعوب الطبيعية فقد تجاهلنا كل المصالح، فلم نراع حرمة العادات والأرواح.. ولقد القينا في غياهب السجون الانفرادية المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاحئ ومؤن.. وبكلمة موجزة لقد تجاوزنا بريرة البرابرة))⁵⁴ استمرت فرنسا على نهجها الاستعماري طوال القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، بل نجدها مع التطور العلمي الذي شهد اختراع الاسلحة الحديثة، تترجم استخدامها للأسلحة من اجل تعذيب ابناء الجزائر لا لذنب اقترفوه بل لأنهم ما يرحوا يدافعون عن ارضهم التي ارادت فرنسا، وبشتى السبل والأساليب ضمها إلى أراضيها وجعلها مستعمرة فرنسية، وما حدث عام 1945 يؤكد هذا الكلام، فبعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الاولى في

ابراهيم كبة، اضواء على القضية الجزائرية، مطبعة الرابطة، بغداد، 1956، ص20 (47)47.

بسام العسلي، المجاهدون الجزائريون، الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت، ص1986، ص101 (48)48.

صلاح العقاد، المصدر السابق، ص127 (49)49.

فرحات عباس، الثورة الجزائرية، دمشق، 1964، ص80 (50)50.

عبد الحميد مسعود الجزائري، المصدر السابق، ص58 (51)51.

احمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة، القاهرة، دت، ص90 (52)52.

المصدر نفسه، ص93 (53)53.

ابو القاسم محمد كرو، المصدر السابق نفسه، صص27-29 (54)54.

8/مايس/1945، تجمع آلاف الجزائريين قرب احد مساجد مدينة (سطيف) للقيام بمسيرة سلمية سبق لمنظمتها ان حصلوا على موافقة فرنستا على تنظيمها، لكن القوات الفرنسية التي جاءت من مدينة قسنطينية لم تمهل المتظاهرين وقتاً لإنهاء مسيرتهم، فبيران رشاشاتهم كانت اقوى من خطواتهم، فخلال دقائق ملأت الجثث شوارع المدينة، واستخدمت ايشع الاساليب في القتل فالأطفال امسكوا من ارجلهم وضربت رؤوسهم بالجدران والصخور، اما النساء فقد أمتهن وانتهكت حرمتهم فقطعت آذانهم من اجل الاقرط وايدبيهم من اجل الخواتم، وأرجلهم من اجل الخلاخل، وكان الجندي يتباهى بتلك الغنائم، ويتفاخر بين زملائه، اذا كان قد احرز على عدد كبير منها، مما يعني انه قتل عدد أكبر من الابرياء⁵⁵ (55)، والأغرب من ذلك كله ان من كان يحاول دفن جثث القتلى، يكون مصيره القتل ايضاً، وبعد التحقيق في هذه الاحداث كانت المصادر والوثائق التاريخية تشير ان الفرنسيين افزعهم مبادرة الجزائريين للقيام بمظاهرة تطوف الشوارع وترفع الشعارات مما قادهم لتشجيع جنودهم على قتل الجميع، فكانت مذبحه كبرى قدر الجنود الفرنسيون انفسهم بأن عدد القتلى تراوح ما بين (8-10) آلاف شخص خلال يوم المظاهرة فقط، ثم توسعت عملية القتل في الايام اللاحقة لتطول الابرياء في القرى والمزارع القريبة، التي ساهم الطيران الفرنسي في تدمير اجزاء كبيرة منها، حتى كانت مجزرة كبرى راح ضحيتها (45) الف شهيد، ومن الروايات التي تبين بشاعة الحدث ان عقيداً فرنسياً كان مسؤولاً عن دفن القتلى، تعرض للوم لتقصيره في اداء عمله، فأجاب قائلاً: انكم تقتلون بأسرع من طاقتنا على الدفن⁵⁶ (56). ولم يقف الامر على هذا العدد المهول من القتلى بل تجاوزت فرنسا وحشيتها بقيامها بعد هذه المجزرة باعلان الاحكام العرفية، وإلقاء القبض على (450) شخصاً، نفذ حكم الاعدام بـ (90) شخصاً فيما حكم على (64) اخرين بالإشغال المؤبدة، أما البقية فقد نفذت فيهم احكام مختلفة. ان ما قامت به فرنسا بهذه المذبحة، كان عملاً اعتادت القيام به في مناطق اخرى من الجزائر فلم يكن حدثاً غريباً، فهناك عدد كبير من القرى التي وقعت فيها ثورات ضد المستعمرين، وغالباً ما كانت فرنسا تنهزم فيها، مما يضطرها للرحيل تاركة اسلحتها غنيمة للمجاهدين الجزائريين، لكنها سرعان ما تعود للانتقام من هزيمتها بطرق وحشية استعمارية تقوم على اخراج الاهالي من بيوتهم المتواضعة لغرض تفتيشها وبالتالي نهبها، ثم يبدأ دور الطائرات التي تلقي قنابل الغاز الحارق ترافقها المدفعية التي ترمي القنابل لإحراق بيوت الاهالي، اما الجنود فيلجئون للتكثيف بالاهالي، واذا ما اعترض شخص ما على هذه الجريمة يكون مصيره القتل، وغالباً ما يطلبون من الاهالي، بعد انتهاء اعمال النهب والحرق والقتل، الرحيل عن اراضيهم⁵⁷ (57)، ليتمكنوا من ضمها لمجموع الاراضي التي استولوا عليها، وبالمقابل تزداد اعداد العوائل المشردة والنازحة. وبعد اعلان الثورة الجزائرية الكبرى في العام 1954 والتي قادت في نهاية المطاف لاستقلال الجزائر في العام 1962، بعد ان سقط مليون شهيداً دفاعاً عن استقلال بلادهم، فقد زادت فرنسا من جانبها من اعمالها الوحشية التي بدأت تأخذ اساليب غير مسبوقه ولم تعرفها البشرية ابدأ، وخاصة ضد المناضلين، فيذكر كاتب فرنسي في كتابه الموسوم (المجنون). (نحن الان في وادي الصمام بالجزائر، وقد جيء بثلاثة من الوطنيين الجزائريين وأمرهم الجند الفرنسيين بحفر حفرة تم دفنهم فيها الى العنق وبقيت رؤوسهم معرضة لوهج الشمس. ووضعوا امام كل منهم وعاء به ماء يبتعد عن فمه نصف متر، وقيل لهم انهم لن ينالوا شيئاً الا اذا تكلموا وظلوا على هذا الحال يومين كاملين ولم ينبس اثنان منهم ببنت شفة فاعداً وهما على تلك الحالة. اما الثالث فقال بعض كلمات في آخر لحظة ثم اعدم ايضاً على اثر ذلك⁵⁸ (58)). واعترف الفرنسيون انفسهم بأنهم كانوا يقومون باعمال التعذيب للحصول على المعلومات وخاصة من رجال جبهة التحرير الوطني⁵⁹ (59) فقد نشر احد الضباط الفرنسيين (بيار اليولات) ووثائق عن حرب الجزائر بعنوان (وثائق الجزائر Documents Algeria) اعترف فيها بأن التعذيب كان من الطرق الرسمية التي تستعمل للبحث عن ما يسمى بالاستنطاق للحصول على المعلومات التي من شأنها التقليل من العمليات الفدائية، لذلك فإن فرنسا كانت تدأب على تأسيس مؤسسات للتعذيب اكثر من تأسيسها للمدارس والمستشفيات، فلا تخلو أي ثكنة عسكرية من غرفة التعذيب التي تكون مجهزة بأحدث وسائل التعذيب... ويضيف بأن هناك رجال ذوي مواصفات خاصة كانوا يقومون بهذه الاعمال فكانوا ينامون في النهار ليتسنى لهم في الليل قتل الابرياء وانتهاك المنازل الخاصة او جلب المشتبه بهم لتعذيبهم في غرف التعذيب الخاصة⁶⁰ (60).

واختلفت اساليب التعذيب وطرقه فهناك اللكمات، الضربات بالدبوس، ماء يبتلع بالقوة، تعليق الاذرع او الارجل، كهرباء في الاصبع، وعلى الاذن، ضرب بالسياط على اخصم القدمين وعلى الاجزاء الجنسية، وبعد الانتهاء من ذلك كله يغرس سكيناً بين الكتفين⁶¹ (61). وشهد جندي فرنسي على صحة اساليب التعذيب السالفة الذكر، حينما اكد ان التعذيب يمر بمراحل فالبند الاول تعليق المشتبه به من رجليه وهو عاري من الملابس، ويده مكتوفة للوراء، ثم يغمس الرأس لمدة طويلة في الماء ليجبر على الاعتراف، اما البند الثاني من التعذيب، فهو التعليق والأيدي والأرجل مربوطة للوراء والرأس الى فوق هذه المرة، ثم توضح تحتها مسامير ويؤرجح الشخص بواسطة اللكمات فوق المسامير، مما يجعل اعضاءه الجنسية تحتك بالمسامير، واذا فشلوا بالحصول على معلومات تقودهم الى قادة الثورة يكمل التعذيب في المساء⁶¹ (62).

وكتب ضابط فرنسي اخر من الفرقة العاشرة رسالة بتاريخ 6/حزيران/1956، يصف فيها اساليب التعذيب، يذكر فيها: لم يصبني ملل في الحياة مثلما اصابني في الجزائر، فان الالمان النازيين في وحشيتهم القاسية لبسوا الاطفالاً صغاراً امامنا... رأيت بعيني اجراءات المكتب الثاني لجنود المظلات الذي كان يعذب الوطنيين طوال اليوم بأبشع الوسائل لإرغامهم على الكلام، وذلك بوضع ماسورة في فم الوطني تحت ضغط الماء حتى يخرج الماء من جميع منافذ الجسم، والأيدي مكتوفة وراء الظهر، ثم يعلق من رأسه حتى تخرج المفاصل عن مواضعها، فحينذاك ينهال عليه الجنود ضرباً لاهوادة فيه ولارحمة، وان لم يقر بشيء يرضيهم

احمد توفيق المدني، المصدر السابق ن، ص 177 (55)⁵⁵.

الادبي www.yahoo.com منتدى جريدة شروق الاعلامية و (56)⁵⁶.

سعد زغول فؤاد، الجزائر في معركة التحرير، تونس، 1957، ص 09 (57)⁵⁷.

عمرو احمد عمرو عبد الرؤوف احمد، المصدر السابق، ص 47-48 (58)⁵⁸.

جبهة التحرير الوطني: تأسست هذه الجبهة بعد تعلق الخلاف بين صفوف حزب الحريات الديمقراطية بداية الخمسينات، فاشقت جماعة منه وكونت بداية الامر حركة سرية اطلق عليها (59)⁵⁹ اسم (كريا) التي تعني الكفاح الوطني الثوري، وحددت هدفها باعداد حملة لمقاومة فرنسا وتوفرت لها مجموعة من العوامل منها التآزر والتنظيم، مما ساعدها على تحقيق الاستقلال للبلاد. بسام السعلي، المصدر السابق، ص 37-38.

عبد المجيد عمراني، جان بول سارتر والثورة الجزائرية، مكتبة مديولي، القاهرة، دت، ص 102 (60)⁶⁰.

بيير هنري سيمون، ضد التعذيب في الجزائر، ترجمة: بهيج شعبان، دار العلم للملايين، بيروت، 1957، ص 54-55 (61)⁶¹.

يجرون عندئذ اشد الاعمال فضاغة، ألا وهي الكهرباء في رأسه ورجليه حتى يكاد يموت⁶²(63). ويعترف جندي آخر، فيقول: لقد اوتي برجل لاستنطاقه، فنزعت عنه كل ثيابه واوثق كتفاه والقي ارضاً بعد ان لطحوا جسمه بالمربي وبقي طيلة يوم كامل معرضاً للشمس في شهر تموز المعروف بحرارته العالية في غالبية مناطق الوطن العربي، والتي تتجاوز احياناً 50°، فكانت اسراب الذباب تروح وتغدو عليه، وبعد هذا العذاب يأمر قائد الفرقة العسكرية بإطلاق سراب من النحل عليه اذا لم يغترف⁶³(64). ومن الأساليب الاستعمارية التي استحدثتها فرنسا خلال الثورة الجزائرية، اسلوب حربي عرف باسم (التربيعية) والذي يقصد به تحديد مربعاً فوق الارض التي تحدث فيها ثورة ويحاط هذا المربع بالجنود، وتوجه حوله المدافع والطائرات، وفي وقت محدد تنطلق القوات البرية والجوية في ذات الوقت على هذا المربع فتحوله بلحظات قليلة الى حطام، وكان هذا الاسلوب الحربي قد اعتادت فرنسا على تطبيقه في المناطق الشمالية والشرقية من الجزائر، فكان من نتائجه استشهاد (130) الف جزائري خلال الاعوام 1954-1956⁶⁴(65). فضلاً عن نظام (التربيعية) فقد كان هناك اسلوباً أكثر خطورة هو (خط مورنيس)، فيعد اكتشاف فرنسا بتهريب الاسلحة والذخائر لجنود الثورة عبر الحدود مع تونس، وكوسيلة منها لمنع وصول هذه الامدادات فقد اقدمت على بناء اسلاك شائكة مكهربة تفوق قوتها (5) آلاف فولت في منطقة الحدود مع تونس، ويمتد هذا الخط الذي عرف بهذا الاسم نسبة الى صاحب الفكرة الجنرال (شارل موريس) General Challe Mourice من البحر الابيض المتوسط شمالاً حتى الصحراء جنوباً، ويعد احدث ما توصلت اليه التكنولوجيا العسكرية في ذلك الوقت، وبعد عام أي في عام (1958) بني جدار مشابه له في منطقة الحدود مع المغرب، وقد فقدت الثورة نتيجة لبناء خط موريس (6) آلاف شهيد خلال سبعة اشهر من عام 1958⁶⁵(66). هذه روايات بسيطة عن اساليب التعذيب التي ارتكبت بحق الابرياء من ابناء الجزائر، والتي راح ضحيتها اعداد كبيرة، فقد قدر الصحفي الانكليزي (جون جنبل) الذي كان مهتماً بأمور ثورة 1954 الجزائرية، بأن متوسط عدد القتلى في العام 1954 كان يزيد على ماتني قتل في الشهر الواحد، وزادت هذه النسبة الى اكثر من خمسة اضعاف في عام الثورة الثاني (1956) لتصل النسبة الى (1400) قتل في الشهر الواحد، وبعد اقل من عام وصل العدد في الشهر الواحد الى (2600)⁶⁶(67) قتل، حتى وصل عدد القتلى مع اعلان الاستقلال مليون شهيد، سقوا بدمائهم الطاهرة ارض بلادهم من اجل ثمن غالي هو الاستقلال وطرد المستعمر. لم تقتصر اعمال التعذيب على الجزائريين العرب، بل كان للأحرار الفرنسيين نصيبهم منها، فمن اوائل الفرنسيين الذين تعرضوا للتعذيب، الاستاذ (موريس أودين Mourice Audin) الذي كان عضواً في الحزب الشيوعي الجزائري، واستاذاً في جامعة الجزائر، اعتقل عام 1957 وتمت ادانته وتلقى سبلاً من عمليات التعذيب بتهمة مساعدة اعضاء جبهة التحرير الوطني، وبقي يعذب حتى وافته المنية، ودفن سر⁶⁷(68) ليدفن معه سر تعذيبه وحقيقة الامر، ان هذه الاعمال زادت الجزائريين حماسة، وقوة عزمهم لإكمال المسيرة التي بدعوا منذ عام 1830، فعندما كانت فرنسا تنفذ حكم الاعدام برجال الثورة⁶⁸(69)، لم يفكر من يصدر بحقه حكم الاعدام الدفاع عن نفسه لتغيير الحكم الصادر بحقه، بقدر ما كان يفكر بكل اعتزاز بأنه سيسقط شهيداً من اجل الجزائر، والأمثلة على ذلك اكثر من ان تحصى في وريقات، فهناك البطل (بيوش)، الذي لاتزال كلماته التي قالها في محكمة العاصمة، عندما كان يحاكم عام 1955 نبراساً ومثلاً يحتذى به الاخرون، فقال في كلام وجه لأعضاء المحكمة: "انني لست متمرداً، ولست خارجاً عن القانون، أنني جزائري حمل السلاح لتحرير بلاده وتحرير اخوانه من السيطرة ومن الاستعمار الذي اثقل كاهلهم منذ اكثر من قرن، اما الخارجون على القانون، وأما المجرمون فهم اولئك الذي يضطهدون ويقتلون شعباً يعد عشرة ملايين نسمة، يريد حريته واستقلاله⁶⁹(70). ما قاله المناضل (بيوش)، وهو الحقيقة التي كان يرددتها كل مناضل جزائري حمل السلاح لتحرير الجزائر، وهي ذات الحقيقة التي قالها احد احرار فرنسا انفسهم من وقفوا مع مناضلي الجزائر بطرق شتى، فكان ابرزها القلم الذي بواسطته كتب الاحرار الحقيقة ليطلع عليها العالم اجمع، ويقف موقف الضد من فرنسا وأساليبها الاستعمارية التي كانت ترتكبها داخل الجزائر، ولعل ابرزهم الكاتب (بيير هنري سيمون) الذي الف كتاباً نقل فيه حقائق عن الاساليب اللانسانية التي ترتكبها فرنسا في الجزائر وأطلق عليه عنوان (ضد التعذيب في الجزائر)، جاء في مقدمة الكتاب: ((سأكتب هذا الكتاب، وليس بدون سبب، فأنا اعلم ان الكلمات ستمزقتني في الغالب، واعلم أنني سأثير ضدي غضباً سوف ينفجر شتائم ومطاعن، ومع ذلك يجب ان ارفع صوتاً يخفني، منذ ما ازعت ضميري كفرنسي معرفة بعض الاعمال، ان على الكاتب ان لا يفعل ذلك ابدأ بدافع التسلية... بل لأجل خدمة الروح... ان ما يستوجب الدم ويدعو للحزن وهو روح من القسوة والانتقام في سلوك الحرب... واذا وجد فرنسيون يقتلون سلطة او قيادة ويرتكبون اعمالاً ضد حقوق الانسان وضد الانسانية، واذا اختبأ الرأي العام في خزانة وقال لانريد ان نعلم... وقال انها الحرب فأنتي اقول اننا نتحمل مسؤولية سياسية وأخلاقية... وأقول وبمزيد من الصراحة انني املك البراهين على الاعمال التي اعترض عليها فهي ليست اخطاء اخلاقية فقط ولكنها اخطاء سياسية يصيب الامة ومنها ضرر مزدوج))⁷⁰(71). وقد اطلعنا، والعالم بأسره، عن حقائق تدبنها البشرية من الاعمال الوحشية واللانسانية التي كانت ترتكب ضد احرار الجزائر، والتي كان مصير من يتعرض لها الموت المحقق، فكان كتاباً صادقاً بكل حرف وكلمة وردت فيه، فقد حاول كاتبه الوصول للحقيقة ليعرضها على الرأي العام ليقول كلمته وينهي المجازر التي كانت ترتكب في الجزائر. اما الفيلسوف الفرنسي الشهير (جان بول سارتر) (1905-1980) فقد جند قلمه للدفاع عن حقوق الشعب الجزائري المغتصبة فكانت له مواقف ايجابية تجاه الثورة الجزائرية، ومنذ العام 1956 عندما وجه اهتمامه بالبنية التحتية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للشعب الجزائري، وفي الاعوام 1957-1959 ركزت كتاباته على طرق التعذيب، وأصبح مهتماً بشعب فرض عليه القتل الجماعي والتعذيب والتشريد، لذلك الف كتاباً أطلق عليه اسم (سجناء الطونا) والذي قارن فيه بين الجرائم التي

عبد المجيد عمراني، المصدر السابق، ص107 (62)62

كثمان الزيدي وعبد الاله الجلي، المصدر السابق، ص23 (63)63

المصدر نفسه، ص26 (64)64

احمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص231-232 (65)65

عبد المجيد عمراني، المصدر السابق، ص86-88 (66)66

عمرو احمد عمرو وعبد الرؤوف احمد، المصدر السابق، ص48 (67)67

عبد المجيد عمراني، المصدر السابق، ص100 (68)68

منذ اندلاع الثورة عام 1954، وحتى عام 1958، اصدرت المحاكم الفرنسية (650) حكماً بالإعدام، وبلغ مجموع من نفذ فيه حكم الاعدام للسنوات 1956-1958 (111) شهيداً جزائرياً. (69)69

محمد مبارك الملي، جميلة بوخيرد، تونس، 1958، ص51

بسام العلي، المصدر السابق، ص105 (70)70

ارتكبتها النازية في فرنسا وبين المجازر التي ترتكب داخل الجزائر، وتوصل الى نتيجة مفادها ان جرائم النازية كانت ارحم بكثير من الجرائم التي ترتكب في الجزائر، والتي تعد مسؤولية تاريخية يتحملها الجميع اما في الاعوام (1960-1962) فقد ركزت كتاباته على العنف وتنوع اساليبه وبدأ سلسلة من الاعمال لدعم نضال الشعب الجزائري، ففي عام 1960 قام بزيارة لكوبا، القى فيها، وتحديداً في جامعة هافانا، محاضرة ندد فيها بالسياسة الفرنسية في الجزائر، وفي العام 1961 شارك بمظاهرة سلمية احتجاجاً على القمع والقتل الجماعي في الجزائر (72⁷¹). ونتيجة لمواقفه ضد سياسة فرنسا، فقد كان مهدداً بالموت من قبل انصار (الجزائر الفرنسية) الذين كانوا ينادون في مسيراتهم بشارع الشانزليزيه Champs-Élysées الموت لسارتر، ولكنه من جهة اخرى وكثميننا لكتاباته السياسية ونشاطاته الثقافية تجاه القضية الجزائرية، فقد حصل على جائزة أميغا (The Omega Price) من منطقة ميلانو الايطالية.

المبحث الثاني

دور المرأة في حركة النضال الجزائري

حيث حديثنا عن نضال الشعب الجزائري خلال سنوات الاحتلال الفرنسي التي امتدت الى اكثر من مئة عام، لانستطيع اغفال الدور المهم الذي لعبته المرأة الجزائرية في عملية المقاومة، فقد سجلت صفة مشرقة من صفحات النضال الثوري، فمثلت المرأة الجزائرية صور لنضال المرأة العربية ضد الاستعمار، وهي بذلك اكدت مساواتها للرجل، وإنها ابنة الجزائر، ومن واجبيها الدفاع عن ارضه وترابه، وهي بنضالها المتميز فتحت باب التاريخ وسجلت صفحات مشرقة من النضال ضد المستعمر الفرنسي. ونحن حينما نسلط الضوء على نضال المرأة، والذي يعني بمجمله شمول قاعدة عريضة من النساء تتمرس على العمل السياسي وتندمج معه من خلال مشاركتها في العمليات الفدائية الهادفة للاستقلال، لانعني بالضرورة ان كل من تحمل السلاح هي مناضلة، وكل من تشارك في العمليات القتالية في الثورات والمظاهرات هي فدائية (73⁷²)، فأم الفدائي وزوجة المناضل او شقيقته او ابنته، والطبيبة والمرضة كل هؤلاء ينخرطن تحت مسمى المناضلة، فالمرأة الجزائرية كانت مناضلة بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معاني فعلى الرغم من معيشتها في مجتمع كان يعاني من الجهل والتخلف والجمود والكبت والحرمان نتيجة الاستعمار، لكنها قاومت هذه الظروف التي كانت تحد من تقدمها لتتطرق وتدافع عن تربة وطنها، فسلحتها لم يكن الرشاش او المدفع بل ارادتها القوية وإيمانها بقضية شعبها (74⁷³)، فأثبتت بذلك شخصيتها المتميزة والتي كان لعملية النضال الثوري دور في بلورة ونضج هذه الشخصية التي لعبت دوراً بارزاً، وبشكل خاص ثورة عام 1954. ومن جهة اخرى كانت مشاركتها النضالية رداً على الادعاء الباطل الذي كان يلاحقها طويلاً، والذي يؤكد ان المرأة الجزائرية تعيش على هامش الحياة، ولا دخل لها بأمر المجتمع لأنها متغيبية عن ميادين الحياة، فعلى العكس تماماً نجد ان عزلتها كانت الدافع الحقيقي وراء الروح النضالية العالية التي اتسمت بها المرأة الجزائرية بل وهناك الادلة الحية التي سوف نوردتها، ما يؤكد ان المرأة لم تكن تعيش حالة من العزلة عن مجتمعها، بل كانت لها مساهمتها في ميادين المعركة الحقيقية دفاعاً عن وطنها منذ دخول القوات الغازية الفرنسية ارض الجزائر عام 1830، ففي حركة المناضل الكبير (عبد القادر الجزائري) كان للمرأة مساهمتها الفعالة والواضحة، فقد كانت النسوة يسرن في مؤخرة الجيش لأعداد الرصاص ومعالجة الجرحى والمرضى، بل وتجاوز دورهن التقليدي هذا بأن اخذن مكانهن في صفوف القتال الامامية بين صفوف المقاتلين، بعد ان كن يرتدين ملابس مشابهة لملابس الرجال منعاً من معرفتهن ومنعهن من مواصلة القتال (75⁷⁴).

وفي العام (1857) وتحديداً في جبال الجرجرة، برزت البطلة (لالا فاطمة اتسومر)، التي قادت مجاهدي قبيلتها (ابليثي) في ثورة عارمة ضد الفرنسيين، فحققت عليهم انتصارات باهرة، فقد حاولوا عبثاً القضاء على ثورتها مما اضطرهم في نهاية الامر، الى خروج الحاكم الفرنسي العام (راندون) بنفسه لمواجهة (لالا فاطمة)، وبعد عدة معارك، كانت الغلبة فيها للقنابل والرشاشات الفرنسية، تم أسر البطلة (لالا فاطمة) (76⁷⁵)، بعد ان اثبتت خلال المعركة شجاعة قلما نجدها في نساء اخريات حتى ان الفرنسيين كانوا يرمزون لكل امرأة جزائرية باسم فاطمة، ونجد في كتابات الكثير من المؤرخين والأدباء الفرنسيين ورود كلمة (الفاطميات Les Fatmas) والتي تعني المرأة الجزائرية (77⁷⁶)، الامر الذي يدل على عظم التأثير الذي تركته (لالا فاطمة) على الفرنسيين، وبالفعل فقد كانت تمثل كل الجزائريات اللواتي كن يرغبن بمقاومة المستعمر بأي طريقة او أي شكل من اشكال المقاومة.

وبعد عامين من أسر البطلة (لالا فاطمة) تبرز بطلة اخرى هي الاميرة (عائشة الجزائرية) التي وقفت ببسالة ضد المستعمرين ونجحت بجمع الرجال حولها مثيرة فيهم روح العزيمة والنضال ومازالت بدعوتها حتى جمعت حولها الف رجل، استطاعت معهم خوض سلسلة من المعارك ضد الفرنسيين فضلاً عن محاصرة المركز العسكري الفرنسي في منطقة (فورناسيونال) (78⁷⁷). وتمضي سنوات الاحتلال، وتزداد المرأة الجزائرية اصراراً على مواصلة المسيرة مع اخيها الرجل لتحرير البلاد، وتتحرر هذه المرأة من صمتها لتبدأ مشواراً نضالياً جديداً، تحتمة التطورات العامة التي طرأت على المجتمع، فنجدها ولأول مرة تخرج بمظاهرة عامة شاركت فيها آلاف النساء عام 1939، اثر الازمة الاقتصادية العالمية، رفعت فيها شعار المطالبة بالأرض والخير والحرية (79⁷⁸). فكانت تجربة نضالية جديدة على المرأة فتحت امامها ابواباً جديدة للنضال وهذا ماتحقق بعد فترة زمنية قصيرة، وتحديداً عند اندلاع الثورة الجزائرية الكبرى عام 1954، والتي كان للمرأة شرف المساهمة الفعالة فيها، فبد اتساع نطاق الثورة، اصبحت الحاجة ماسة لمهمات جماعية تقوم بجمع الاموال او التجسس او تكوين تشكيلات سرية واسعة، الامر الذي دفع رجال الثورة، وبعد تردد طويل، الاستعانة بالمرأة لتشارك معهم في هذه الاعمال البعيدة عن ساحات القتال، في البداية اقتصر الامر على زوجات المناضلين، لكن اتساع الثورة جعل المشاركة نساء عدة، دون الفتيات، لكن الفتيات، وجدن في العمل العسكري ضالتهن فبدأن يتطوعن وبنسبة كبيرة جداً.

بيير هنري سيمون، المصدر السابق، ص.ص 5-13 (71)⁷¹.

عبد المجيد عمراني، المصدر السابق، ص.ص 141-143 (72)⁷².

حكمت ابو زيد، امكانات المرأة العربية في العمل السياسي، بحوث ندوة المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982، ص 162 (73)⁷³.

انيسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995، ص 91 (74)⁷⁴.

محمد مبارك الميلي، المصدر السابق، ص 71 (75)⁷⁵.

انيسة بركات، المصدر السابق، ص 94 (76)⁷⁶.

احمد شيلي، موسوعة التاريخ الاسلامي (4) الطبعة الحادية عشر، القاهرة، 1999، ص 294 (77)⁷⁷.

محمد مبارك الميلي، المصدر السابق، ص 71 (78)⁷⁸.

من خلال جبهة التحرير الوطني، التي قادت نضال الشعب الجزائري حتى الاستقلال، نمت الحركة النسائية ونشأت اول منظمة نسائية تابعة لجبهة التحرير الوطني والتي تحولت بعد الاستقلال الى الاتحاد النسائي الجزائري⁷⁹(80)، وقد تنوعت الاعمال او الادوار التي قامت بها ضمن اطار جبهة التحرير مثل التمريض الذي يعتبر من العوامل الحاسمة في استمرار المعركة فضلاً عن القيام بالاعمال القتالية والفدائية، فقد قمن في كثير من الاحيان بمهمة ضابطة اتصال بين الخلايا لنقل الرسائل بين الثوار، او لحمل الاموال للثوار، وباستمرار الثورة واستقرار انماط المقاومة، يصبح حجاب وعباءة المرأة اللذان وصفا من قبل الفرنسيين بأنهما رمز التخلف، يصبحان سلاحين ضمن اسلحة المقاومة، فتحت العباءة تستطيع المرأة اخفاء الرسائل والمنشورات بل وحتى الاسلحة التي تستطيع نقلها من مكان الى آخر، وهذا ما اعتمد عليه المناضلون الذين كانوا في الاعم الاغلب معروفين لدى البوليس الفرنسي الذين لا يبرحون ان يفتشواهم في كل مرة، لذلك اعتمدوا على المرأة بنقل ما يحتاجون من اسلحة لمقاومة المستعمرين والتي لا يفكر البوليس بخطرهما ولا يفكر بتفتيشها، وعند وصولها المنطقة محددة تتسلم السلاح للمناضلين لينفذوا به مهامهم القتالية⁸⁰(81). اما بالنسبة لعمليات المقاومة داخل الحي الفرنسي، فنجدتها تتخلى عن حجابها وتتقلد بالنساء الفرنسيات من خلال ارتدائها الزي الاوربي لتتبع عنها الشبهات، وتحمل القنابل اليدوية، او البنادق سريعة الطلقات، وتنقل عبر الطرقات، حيث لا يستطيع الرجل الجزائري او المرأة المحجبة الوصول هناك لأنه سيكتشف أمرهم سريعاً، أما المرأة غير المحجبة التي تتميز بالجرأة والبطولة، فتعرض بعملها هذا نفسها للهلاك لتقوم بأعمال فدائية ضد المستعمر في داخل حيه السكني⁸¹(82).

لم تقتصر ملاحم المرأة على مراكز المدن، بل امتدت للجبال والقرى والأرياف حيث أخذت مراكز السلطة وتولت ادارة القرى في غياب رجالها فضلاً عن قيامها بعمليات التمريض وإخفاء جرحى الفدائيين عن أعين قائلهم، لذلك كانت لها حصتها في عمليات التعذيب، فعين تشتد اوار المعركة لم يعد الفرنسي يميز بين المرأة او الرجل وبين الطفل او الشيخ عندما كانوا يصوبون بنادقهم نحو كل اتجاه في شوارع الجزائر، حتى يزرعوا الخوف فيمن بقي منهم على قيد الحياة. وتصف لنا المجاهدة (مزياني مداني لويزة) الاعمال التي تقوم بها المناضلة الجزائرية بقولها: (ومنهن من تعمل في جهاز الاتصال بين العاصمة والجبل بين المجاهدين وأهلهم او اصحابهم في النضال فكانت الرسائل تزوج وتجيء في سرية وبطرق غير مشكوكة ألا نادراً....)⁸²(83). وتضيف ايضاً، موضحة لنا الدور الأخر الذي تقوم به المناضلات، خاصة اللواتي يستخدمهن الجيش الفرنسي لغسل ملابس الجنود، حيث كنّ يستولين على كثير من الملابس لغرض ارسالها لجيش التحرير فضلاً عن تهريب المؤونة والذخيرة وتدبير هروب الشبان وتسهيل انضمامهم لصفوف جيش التحرير. يضاف للإعمال السالفة كلها دورها الانساني فهي تساهم بكل جوارحها ومشاعرها عندما تودع زوجها او فلذات اكبادها لساحات القتال، وهي نفسها التي تستقبلهم بالزغاريد والدموع عند استشهادهم، فتجدها صابرة جلدة، بل وأكثر من ذلك كله فهي تتحمل عمليات التعذيب عندما يقوم الفرنسيون بالانتقام منها بعد معرفتهم بأن بيتها خرج منه مجاهد، سواء كان زوجاً او اباً او ابناً، فيصب عليها انواع الانتقام من تعذيب واستنطاق حتى ذهبت كثيرات منهن شهيدات جراء عمليات التعذيب هذه⁸³(84). وكان للدب والشعر، والقصة القصيرة دورها في تخليد نضال المرأة الجزائرية، ومساهماتها في الثورة، وكيف انها كانت مستهدفة من قبل المستعمر، لذلك كتبت قصائد كثيرة في هذا المجال، ومنهم الشاعر (محمد شمس الدين)، الذي نشر قصيدة وبين فيها الظلم الذي تتعرض له المرأة الجزائرية، مبتدأ قصيدته قائلاً:

في بلادي..

في بقاع سميت (أرض الجزائر)

حيث للتاريخ محراب ... وللفكر منابر

تنسج الاقدار فيها، قصة لحمتها نار المنون

وسداها الثائرون

ثم ينتقل ليصور لنا من خلال ابيات الشعر، قصة حقيقية تعرضت لها المرأة الجزائرية، عندما التقى بها جنديان في الطريق، وكانت (حبلى) فأوقفوها و تراهننا على جنس الجنين الذي تحمله هو ذكر ام انثى، وليتأكدنا من ذلك قاما بشق بطنها واستخراج جنينها، لتطرح معه على الارض طريحة للطيور والذئاب، صور لنا هذه الجريمة البشعة من خلال ابيات الشعر:

في بلادي.. حيث تاريخ الملاحم

نقل الناس حكاية...

هي: جنديان من جند الدخيل

غشيا ارض المدينة

وإذا في الدرب حبلى لمحاها او قفاها..

وانبرى الاول يحكي: هل تراهن؟!

يارفيقي.. لو بقرنا بطنها

هل نرى (أنثى) إذا بقرنا بطنها

ام نرى فيه (عدواً) ذكرا

يار فيقي! ... لو ترى..

فأجاب الاسود الرعدي.. هيا!

وانتزع احشاءها شيئاً فشيئاً ..

ولتكن (عشر فرنكات) رهاناً .. لمجلي

حكمت ابو زيد، المصدر السابق، ص165 (79)

ليندا مطر، دور التنظيمات والجمعيات النسائية في الوطن العربي، من كتاب: المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982، (80)

ص193

احمد شلبي، المصدر السابق، ص297 (81)

حكمت ابو زيد، المصدر السابق، ص168 (82)

مزياني مداني لويزة، مذكرات امرأة عاشت الثورة، الجزائر، 1992، ص68 (83)

.. وانتضى الآخر من اوسطه

حربة مسمومة ذات شفار

تم شق البطن.. مزهواً.. فقد حاز انتصار

تاركاً للطير أمأ، وجنياً، ونثار⁸⁴(85)

اما في مجال النثر، فقد تنوعت الاعمال ما بين القصة والرواية والمسرحية التمثيلية التي تصور نضال الجزائريات، وما يتعرضن له من اعمال التعذيب والتهديد، فكانت هناك مسرحيات عديدة، فيها مقاطع تمثيلية توضح الاساليب التي تعامل بها فرنسا نساء المجاهدين، والتي غالباً ما تستقرهن بتهديدها بصغارها اذا رفضن خيانة زوجها او وطنها، فهناك مشهد تمثيلي يصور هذه الحالة جاء به:

(... والآن الاعترفين؟ يتناول الجندي الصبي ويخاطب امه، أنت أيتها البشعة المترهلة تحدثي اين يختبئ زوجك؟ تحدثي والا سوف أذبح صغيرك فوق فخذيك. (يخرج المدينة ويضعها فوق عنق الصغير "...)⁸⁵(86).

هذه مقتطفات من اعمال ادبية صورت لنا ما تعرضت له المرأة الجزائرية عامة من اعمال لا إنسانية يندى لها جبين البشرية خجلاً، على ان هناك اسماء نساء اخريات يحتم علينا واجبنا الانساني اولاً والتاريخي ثانياً ان نسجل نضالهن من اجل استقلال الجزائر، ولعل ابرزهن المناضلة خالدة الذكر (جميلة بوحيرد) المناضلة جميلة بوحيرد أنموذجاً لنضال المرأة الجزائرية

حياتها ونشأتها ودورها النضالي

كثيرون يعتبرون ان جميلة بوحيرد ابرز المناضلات من اجل الحرية في القرن العشرين، لكن المعلومات المتوفرة عن هذه البطلة التي دخلت التاريخ من اوسع ابوابه في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، قليلة الى حد كبير، ولأسباب غامضة للغاية، وفي الواقع يبدو وكأن ستاراً يلف عمداً عليها وحولها في محاولة لطمس اسمها ورفعها الى زوايا النسيان. فالمعلومات المتوفرة عن دورها في ثورة التحرر لا تتجاوز السطور القليلة المنتثرة هنا وهناك. ولربما يكون من السهل جداً على المرء ان يعثر على معلومات غزيرة ومفصلة عن الكثير من رفاق جميلة في النضال ممن لعبوا ادواراً اقل اهمية من دورها. وذلك في النتيجة يثير العديد من التساؤلات عن الاسباب والدوافع، خصوصاً انه في كل مدينة او بلدة عربية لا تخلو من شارع او مدرسة يحملان اسم هذه المناضلة. وقد يكون من السهل علينا ان ندرك اسباب محاولات تجاهلها لو اخذنا في اعتبارنا حجم ما قدمته جميلة للثورة الجزائرية، حتى بعد اعتقالها او خلال محاكمتها او سجنها، ومدى اسهامها في نجاح الثورة، وفي وقت لاحق في ترسيخ اهمية النضال الوطني ضد الاستعمار. لكن ما يحزن في الامر ان الدوائر الرسمية في الجزائر، والتي قاتلت جميلة من جل تحريرها تعتذر، بأدب مبالغ فيه، عن توفر معلومات عن جميلة بوحيرد، لتعرض بدلاً عنها معلومات عن شخصيات اخرى، وقد زاد الطين بله أن مسؤولاً في احدى سفارات الجزائر ابغى ان الشيء الوحيد المتوفر عن جميلة هو ان اسمها ورد لديهم في قوائم شهداء الثورة، في حين انها مازالت على قيد الحياة. لذلك جهدنا بجمع الاسطر القليلة التي كتبت عن نضال هذه المرأة لتقدم صورة، ولو بسيطة عن امرأة ناضلت مع ملايين اخرين لاستقلال بلادها.

حياة جميلة بوحيرد ونشأتها

ولدت جميلة بوحيرد في العام 1935 في منطقة زنقة الرمانة الواقع في مدخل حي القصبه الشهير في العاصمة الجزائرية، وهي البنت الوحيدة بين سبعة شبان انجبتهم امها، ذكرت الامصار اسماء خمسة منهم: نور الدين (طالب فلسفة في باريس)، لياس (عذب ليلة كاملة من قبل الفرنسيين بعد الفاء القبض على اخته وكان عمره خمسة عشر عاماً)، هادي، عزيز، ونادر⁸⁶(87). نشأت جميلة تنشئة هادئة في اسرة متوسطة الحال، بين أب كان مغرمًا بالرياضة التي اهلته لامتلاك روح رياضية هادئة بعيدة عن السياسة والثورة، وأم زرعت فيها حب الجزائر، فهي التي انتفضت غاضبة عندما سمعت جميلة تردد في كتاب التاريخ عبارة (اسلافنا هم الغال) أي الفرنسيون الذين يرجع اصلهم لشعوب الغال، فقالت لابنتها ان الجزائر وطنك، والعروبة هويتك، والإسلام دينك⁸⁷(88). اما عمها (مصطفى) فتعلقت به تعلقاً زاد على تعلقها بوالدها ووالدتها، وكان الذي تولى تربيتها منذ الصغر زارعاً فيها الروح الوطنية المتحمسة، فهو من السياسيين الناشطين، الذين كان له شرف المساهمة في ليلة الثورة الاولى في (تشرين الثاني 1954)، ولأنه كان مصاباً بمرض في الاعصاب، فلم يكفه رفاقه المناضلين بأعمال ثورية حافظاً على صحته الامر الذي حز بنفسه، لكنه وجد بأبنة أخيه جميلة ضالته التي ينشدها فعلم على ادخالها بصفوف جبهة التحرير حياً لها وتقدير لإخلاصها في العمل الثوري حتى وصل الامر به انه كان يقدها اكثر من أي شخص آخر⁸⁸(89). تلقت جميلة تعليمها الابتدائي بمدرسة فرنسية، وهو حال بقية ابناء الجزائر، ولكنها كانت متمسكة بقوميتها وانتماها للجزائر ففي طابور الصباحي المدرسي كان الاطفال يرددون (فرنسا امنا) باستثناء طفلة واحدة كانت تصرخ وتردد بصوت واثق (الجزائر امنا) فما كان من ناظر المدرسة الفرنسي ألا أن يخرجها من الطابور ويعاقبها عقاباً شديداً ولكنها بقيت تردد (الجزائر امنا)⁸⁹(90). واصلت تعليمها المدرسي فالتحقت عام 1950 بمعهد الخياطة والتفصيل فقد كانت تهوى الرسم وتصميم الازياء، وتعرفت في المعهد على فتيات اوربيات وكانت لها معهن علاقات صداقة طيبة، وكانت طالبة متميزة حتى انه يوم محاكمتها، خصصت استاذة الجغرافية الفرنسية حصة كاملة تكلمت لطالباتها عن (جميلة) واجتهادها الذي كان مدعاة للفخر، حتى للمعلمة نفسها التي تتفخر بأن جميلة كانت احدى طالباتها⁹⁰(91) فجميع منتسبي المعهد كانوا

المصدر نفسه، ص.ص. 101-102 (84) 84

محمد شمس الدين، انشودة للجزائر، مجلة الاداب، بيروت، العدد (7) 1956، ص25 (85) 85

عبد الكامل جويبة، المرأة والأدب في تاريخ الثورة الجزائرية، مجلة علوم انسانية، السنة الثالثة، العدد (28)، مايس 2006، ص115 (86) 86

جورج ارنو وجاك فيرجيس، دفاعاً عن جميلة، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1958، ص67 (87) 87

جميلة بوحيرد، البطلة التي قهرت الاستعمار (88) 88

<http://forums.ikhwan.net>

محمد مبارك الميللي، المصدر السابق، ص.ص. 88-89 (89) 89

<http://www.shrooq2.com> (90) 90

شروق، منتدى جريدة شروق، رحيل المناضلة جميلة بوحيرد

يحترمونها لسيرتها المثلى، فقد فرضت هيبتها واحترامها على الجميع، وامتلكت جمالاً مميزاً، ساهم اختيارها للذوق الرفيع في اختيار الملابس ذات طابع الاناقة في ابراز جمالها اكثر، وكانت تمتلك مشية متأنقة فقد كانت تمارس الرقص الكلاسيكي فضلاً عن براعتها في ركوب الخيل⁹¹(92). امتلكت جميلة اخلاقاً وخصالاً عظيمة برزت خلال عملها النضالي، والتي جعلتها تمتلك شخصية قوية اجبرت الاخرين على احترامها وتركت بصماتها الواضحة على بنات جنسها، فهي شجاعة وهادئة وصبورة وقوية الاعصاب، فضلاً عن امتلاكها روح الفكاهة فعندما يحل بالمناضلين أي مكروه تحاول الترفيه عنهم لنسيان متاعبهم وهمومهم، وفرضت شخصيتها القوية حتى على الجنود الفرنسيين انفسهم فقد ذكر احد رفاقها في جبهة التحرير ما يؤكد ذلك، بقوله: ((كانت هناك دوريتان عسكريتان فرنسيتان تحرسان بالتناوب النهج الذي تقطنه جميلة في مدخل حي القصبية وكانت ورغم ما هو معروف عن الجنود الفرنسيين من معاكسة النساء، فأنا واحد منهم لم يجرأ في يوم من الايام على ان يوجه لها اشارة او يسمعها كلمة او يركز فيها نظره. لقد كانت تفرض عليهم ان يحترموها وكان لها شيء يشبه الاشعاع النفسي يجبرهم على ان لا ينظروا اليها نظرتهم لكل امرأة وفتاة))⁹²(93). تميزت جميلة، فضلاً عن الصفات السالفة الذكر، بهدوئها في مواجهة الاخطار وضبط اعصابها في أشد المحن، وما المحادثة التي سنرويها والمتعلقة بعمها (مصطفى) ألا دليلاً على ذلك فبعد معرفة السلطات الفرنسية بعمل عمها السري الذي كان بمثابة الاب الروحي لها، في جبهة التحرير الوطنية، اضطر للهرب لمنطقة الجبال الثائرة ليكون بعيداً عن أعين الفرنسيين، ولكن في احدى المعارك معهم تم اسره في منطقة (عين بسام) وأخذ جنود المظلات للعاصمة حيث سلطوا عليه الواناً مختلفة من طرق التعذيب، وبعد ان حاول الهرب منهم كان مصيره رصاصة استقرت بجسمه وارده قتيلاً، وعندما اخبرت جميلة عن مصير عمها احست بألم عميق ولكنها تماكنت اعصابها، وأخبرت الجميع بفرحها الغامر باستشهاد عمها في سبيل الجزائر، فشيحت جثمان عمها بدمعة واحدة وقالت (سانقم له)⁹³(94). بهذه الروحية والتحدى والإرادة القوية عاشت المناضلة جميلة بوخيرد، والتي استطاعت من خلالها قمر اعداءها ومواصلة النضال لإخراجهم من الجزائر، فكانت قصة مشاركتها في الثورة ونضالها الثوري.

* مشاركتها في الثورة الجزائرية

عمل عم جميلة (مصطفى) على انضمامها لجبهة التحرير بعد ان زرع فيها روح النضال والمقاومة فتم له ذلك في العام 1955 بعد ان بلغت جميلة عقدها العشرون وسرعان ما التحقت بصفوف الفدائيات لامتلاكها صفات خاصة اهلتها لذلك، فالفدائية لا بد ان تتميز بتربية مثالية وتتصف بخصال سامية كالصمود والصلابة والاعتداد بالنفس والإيمان الراسخ والالتزام بالسرية وعدم ايهاب الموت والخوف من الاخطار والمتاعب، وذلك لطبيعة الاعمال التي توكل اليها لأنها تكلف بالهجوم على التكنات العسكرية وقتل الجنود الفرنسيين وفي وضح النهار وإمام مرأى الجميع، فضلاً عن قيامها بحمل الاسلحة والعتاد والوثائق السرية وتسليمها للقادة والمسؤولين في جبهة التحرير⁹⁴(95). اجتمعت الصفات السالفة الذكر بشخص (جميلة بوخيرد) التي كانت مثلاً يحتذى به للمناضلة الجزائرية، مما اهلها لان تتولى منصب امينة سر (سكرتيرة) للقائد والمناضل (ياسف السعدي) الذي أثرها على غيرها من الفدائيات لإقدامها وإخلاصها وشجاعتها⁹⁵(96). تلخص عمل جميلة الذي حمل مخاطر ومسؤولية كبيرة، بنقل الرسائل السرية للقادة العسكريين، والتنقل من منزل لساخر لشرح آخر مستجدات الموقف السياسي لأهالي حبيها في القصبية، واستمرت بعملها هذا الى ان بدأت السلطات الفرنسية تشك فيها، لذلك ارتأت المنظمة الفدائية التي تنتمي اليها بالاستقرار بمنطقة الجبال، والعمل كمرضة في صفوف جيش التحرير الوطني، فبدأت استعداداً للمهمة الجديدة الموكلة لها بتعلم فن التمريض واستخدام الحقن الطبية، لكنها ولأسباب تتعلق بعمل المنظمة لم تلتحق بالجبل وبقيت تمارس عملها النضالي في العاصمة الجزائرية⁹⁶(97). وكجزء من عملها كفدائية، عملت جميلة بزرع القنابل في اماكن تواجد الفرنسيين فكانت من اوائل المتطوعات بهذا العمل، فهي التي قامت بتنفيذ عملية تدمير ملهى (ميلك بار) الشهيرة في كانون الثاني 1957 بواسطة القنابل التي كانت تصنع بعضاً منها في بيتها⁹⁷(98)، فضلاً عن اشتراكها في القاء القنابل في ملهى (الكافيتاريا) و (الكوك هاردي) والتي تسببت بمقتل ثلاث اشخاص وجرح اكثر من (20) اورياً، وكانت هذه العمليات سلسلة من عمليات اخرى في اماكن متفرقة من اماكن تواجد الفرنسيين والتي قضت على اعداد كبيرة منهم ومما اثار حفيظة فرنسا التي قامت وكعادتها المسبوقه بعمليات قمع وحشية تزعمها الجنرال (ماسو) وفرض حظر للتجوال بقصد قمع الثورة وإتاحة الفرصة لإلقاء القبض على مرتكبي هذه التجبيرات لدى فرنسا، وكانت جميلة المطلوبة رقم (1) لديها لكونها حلقة الوصل بين قادة الجبل في جبة التحرير ومدنوب القيادة في مركز المدينة (ياسف السعدي) الذي حددت فرنسا عبر منشوراتها مكافئة مقدارها الف فرنك، ثمناً لرأسه⁹⁸(99)، وبتاريخ 9/ نيسان/ 1957، وبينما كانت جميلة متوجهة للقائد (ياسف السعدي)، وفي جعبتها وثائق ورسالة مهمة ومبلغ من المال يخص الثوار، اصطدمت بها دورية فرنسية هي واثنان اخران كانوا ملثمين في وسط حي القصبية، وبعد اطلاق النيران هرب الشخصان الاخران، وبقيت جميلة طريحة الارض بعد اصابتها بجروح بالغة⁹⁹(100). بانتهاء عمليات اطلاق النار اسرع جنود المظلات الفرنسية بإلقاء القبض على جميلة التي فقدت وعيها ونقلوها لمستشفى العاصمة لتبدأ هناك رحلة التعذيب التي دخلت من خلالها جميلة التاريخ من اوسع ابوابه.

- عمليات التعذيب التي تعرضت لها جميلة

بعد اصابة جميلة برصاصة في كتفها اخذت لمستشفى العاصمة لإجراء جراحة مستعجلة لها ليس حفاظاً على صحتها بقدر ماكانت فرنسا ترغب ببقائها على قيد الحياة للحصول على معلومات تدلهم لبقية مناضلي جبهة التحرير الوطنية، لذلك سارع الجنرال

محمد مبارك الملي، المصدر السابق، ص 89 (91)91

الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) جميلة بوخيرد (92)92

<http://ar.wikipedia.org>

محمد مبارك الملي، المصدر السابق، ص 12 (93)93

المصدر نفسه، ص 98-99 (94)94

انيسة بركات، المصدر السابق، ص 109 (95)95

جورج ارنو وجاك فرجيس، المصدر السابق، ص 67 (96)96

محمد مبارك الملي، المصدر السابق، ص 14 (97)97

<http://www.iraq-ina.com> (98)98

اسمي جميلة بوخيرد.. اعيش بينكم والتزم الصمت

<http://www.kenanaonline.com> memo7a (99)99

ورحلت جميلة الجميلات

(ماسو) للمستشفى لاستجواب جميلة التي بدأ بسؤالها وهي طريحة فوق منضدة العمليات، وقال لها وبلهجة ساخرة (أرأيت أين قادك عمالك)، فإجابته جميلة بشجاعة بالغة (أنني لم اعرف قيمة عملي في خدمة وطني ألا في هذه اللحظة، عندما رأيتم ملتفين حولي كما تحيط الكلاب الجائعة بالضحية)¹⁰⁰(101). وبعد انتهاء العملية، ولسهولة تعذيب جميلة عندما تكون بعيدة عن الاعين نقلت للمستشفى العسكري وبدأت عمليات التعذيب فكانت اولاً عملية الصعق الكهربائي التي استمرت ثلاث ايام متتالية تمت بواسطة الاسلاك الكهربائية التي ربطت على حلمتي الثديين والأنف والإذنين الأمر الذي عرضها للإصابة بنزيف استمر خمسة عشر يوماً لعدم تحمل جسدها الهزيل صعقات الكهرباء، ولكنها تحملت عملية التعذيب هذه، ولم تعترف على زملاؤها، مما اضطر الفرنسيين لنقلها الى سجن (باربدوس) الذي يعد من اشهر مؤسسات التعذيب في العصر الحديث، وفي هذا المكان بدأت سلسلة من عمليات التعذيب التي استمرت جلسات التعذيب 18 ساعة متواصلة تمثلت بإدخال الأسلاك المكهربة إلى شفتها وإقدامها ثم إلى فمها، وبالتالي اغمي عليها لعدم تحمل جسدها عملية التعذيب هذه¹⁰¹(102). بعد ان افاقت جميلة، علقت على عملية التعذيب التي تعرضت لها قائلة "ان الذين عذبوني هكذا لا يحق لهم اذلال المخلوق البشري كما فعلوا جسدياً على شخصي انا، واخلاقياً على انفسهم هم"¹⁰²(103) (ينظر الملحق 2) بقيت فرنسا تمارس عمليات التعذيب ضد جميلة والتي اختلفت من قلع الاظافر الى شج الرأس وكسر احد ساقيها ولكن دون جدوى، فلم تنفوه بكلمة واحدة تدلهم على قادة الثورة بل على العكس تماماً فقد كانت الابتسامة لاتفارقتها وهي تردد الآية الكريمة (من المؤمنين رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليهم* فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً)، وهنا لجأت فرنسا الى اختطاف احد اخوة جميلة، لاستنطاقه حتى يدلي باي معلومات تنفعهم، لكن محاولتهم باءت بالفشل، لذلك عادوا لجميلة لممارسة عمليات التعذيب ضدها حتى تلفظ انفاسها الاخيرة مدعين انها انتحرت، لكن ظروف الثورة والأوضاع الدولية التي كانت تطالب باستقلال الجزائر، وقفت ضد مخططهم هذا، لذلك لجئوا الى وسيلة قانونية تضمن لهم التخلص من جميلة من خلال تقديمها للمحاكمة وإصدار قرار الإعدام ضدها، فكانت محاكمتها الشهيرة.

محاكمة جميلة

بعد انتهاء اعمال التحقيق مع جميلة بوحيرد، الفت القوات الفرنسية قد اقلت القبض على زميلة لجميلة وهي (جميلة بو عزة)¹⁰³(104) وهي واحدة من الجميلات الثلاث جميلة بوحيرد، جميلة بو عزة، وجميلة بوباشا¹⁰⁴(105). وبعد اجراء التحقيق قررت المحكمة محاكمة جميلة بوحيرد وجميلة بو عزة في يوم واحد قبل بدء المحاكمة رفض عدد من المحامين الاشتراك في الدفاع عن جميلة لرفض المحكمة اطلاعهم على ملف القضية من جانب ولرفض جميلة استبعاد التحقيقات التي اخذت خلال جلسات التعذيب من جانب آخر، الى ان وقع اختيار عائلتها على المحامي الفرنسي الشهير (جاك فيرجيس) الذي تحمس للدفاع عن قضية جميلة، والذي اصيب بصدمة عندما شاهد جميلة لأول مرة لأنه شاهد وجهاً قد فارقه ملامح الحياة اثر امتلاءه بزرق اللطامات وأثار التعذيب القاسية، اما جميلة فلم تشاهد بمحاميه سوى عدواً آخر يرد هلاكها مثل بقية ابناء جنسه لكن هذا الانطباع تغير مع بدء جلسات المحكمة¹⁰⁵(106). بدأت المحكمة العسكرية الفرنسية جلساتها في حزيران 1957 بتوجيه تهمة الارهاب لكل من (جميلة بوحيرد) و (جميلة بو عزة)، اعترفت جميلة بوحيرد بأنها كانت تعمل سكرتيرة لدى المناضل (ياسيف سعدي)، لكنها انكرت التهمة التي ادعت المحكمة بان (جميلة بو عزة) قد وجهتها اليها وهي المشاركة بتفجير ملهى فرنسي يوم 26/ كانون الثاني/ 1957 عندما قامت بتسليم (جميلة بو عزة) قبلة وطلبت منها وضعها داخل الملهى، لكن جميلة بو عزة بدأ تتصرف داخل المحكمة بتصرفات غريبة جراء عمليات التعذيب التي تعرضت لها والمخدرات التي كانت تجبر على اخذها، فبدأت بتمزيق ثيابها والتفوه بكلمات غير لائقة وإخراج مسدس وهمي وتوجيهه نحو قادة المحكمة¹⁰⁶(107)، مما اضطر رئيسها الى احالتها الى طبيب مختص جاء في تقريره ان جميلة سليمة العقل ولا تعاني من أي شيء وإنها تتظاهر بالجنون، لكن المحامي (جاك فيرجيس) طلب من لجنة المحكمة اعادة فحصها لكن طلبه رفض¹⁰⁷(108). واستمر اليوم الاول للمحاكمة بسجال طويل بين (جميلة بوحيرد) التي كانت تدافع عن نفسها و (جميلة بو عزة) التي اصيبت بلوثة عقلية دفعها لاتهام زميلتها بأنها وراء عملية التفجير، وفي اليوم الثالث للمحاكمة قامت المحكمة باستجواب (طالب) وهو احد المناضلين العاملين في جبهة التحرير والذي كان طالباً في الكيمياء بقصد الحصول على تهمة تدين (جميلة بوحيرد)، ولكنه وبشجاعة متناهية رفض كل الاتهامات الموجهة لجميلة واتهم جنود المظلات بتزوير شهادته¹⁰⁸(109)، فضلاً عن شهادة (طالب) فقد تم تضمين ملف القضية تحقيق ادعت المحكمة فيه ان جميلة اعترفت ووقعت على اعترافها بإلقاء القنابل وعندما حاول محاميهما الاطلاع على نص الاعتراف رفض طلبه، ولم يستحب له ألا في يوم القاء الحكم فشاهد توقيعاً مزوراً فطالب بجلب خبير للخطوط ولكن طلبه هذا رفض ايضاً، وبدء حملة الدفاع عن موكلته وقال ان كان التوقيع صحيحاً، فان الافادات انتزعت من موكلته بواسطة التعذيب الوحشي وتسليط تيارات كهربائية على مناطق مختلفة من جسمها، لكن المحكمة قالت انها ادعاءات باطلة ولا اساس لها من الصحة¹⁰⁹(110).

بسام العسلي، المجاهدة الجزائرية، الطبعة الثانية، بيروت، 1986، ص138 (100)

محمد ومبارك الملي، المصدر السابق، ص104-105 (101)

ورحلت جميلة الجميلات <http://www.kenanaonline.com.memo7a> (102)

جورج ارنو وجاك فيرجيس، المصدر السابق، ص103 (103)

جميلة بو عزة: من مواليد الغفرون بمنطقة بلدية عام 1937، انضمت للثورة عام 1956 وهي مازال طالبة بالثانوية، عملت بالمجموعات المسلحة بالعاصمة فقامت بوضع عدة قنابل (104) بأماكن تواجد الفرنسيين، وأهمها عملها بوضع قنابل اندت لتفجير ملهى (بالكوكرادي) عام 1957، والذي قتل فيه أكثر من 20 فرنسياً وجرح (89) اخرين، على اثر ذلك قامت المخابرات الفرنسية واستناداً لوصف مشاهدتها برسم صورتها ونشرها بأماكن متعددة لسهولة القبض عليها، فكان لها ما ارادت في ابريل 1957، سامها رجال المظلات الفرنسيون سائر انواع التعذيب وأبشعها وأكثرها وحشية وهمجية، تنقلت بين عدة سجون، كان اخرها سجن (نيور) بفرنسا. اطلق سراحها مع وقف القتال عام 1962. وغالباً ماكانت الصحف تقع في لبس بينها وبين جميلة بوحيرد عندما كانت تضع احياناً صورة جميلة بوحيرد، وأحياناً أخرى صورتها. اخر معلومات عنها عام 1982 بأنها تزوجت ولها ثلاث اطفال. عبد الكامل جويبة، المصدر السابق، ص9

جميلة بوباشا: من مواليد العاصمة الجزائرية عام 1938 انضمت للثورة عام 1955 وهي مازال تلميذة كان عملها النضالي يتمثل بنقل الادوية والوثائق للثوار وإيواء المناضلين (105) المطاردين. اعتقلت القوات الفرنسية في 9/9/1960، وموست عليها سائر انواع التعذيب بقيت رهينة السجن الى ان اطلق سراحها مع اعلان الاستقلال عام 1962 الف عنها الكاتبان الفرنسيان (سيمون دي بوفوار وجيزيل حليمي) محاميتها كتاباً بعنوان (جميلة بوباشا). عملت بعد الثورة في مجالات عديدة وفي عام 1982 اصبحت عضواً بالمجلس التنفيذي لمنظمة المجاهدين وهي ام لثلاثة اطفال. عبد الكامل جويبة، المصدر السابق، ص9

جورج ارنو وجاك فيرجيس، المصدر السابق، ص12-13 (106)

عمرو احمد عمرو وعبد الرؤوف احمد، المصدر السابق، ص50 (107)

بسام العسلي، المجاهدة الجزائرية، ص142 (108)

<http://www.kenanaonline.com.memo7a> (109)

بعد دفاع محامي جميلة، انتهت المحكمة الى توجيه التهم التالية لجميلة:

- 1- احراز مفرقات.
- 2- الشروع والاشتراك في حوادث قتل.
- 3- شروع في قتل وتدمير مبان بالمفرقات.
- 4- الاشتراك في اعمال مماثلة.
- 5- الانضمام لجماعة من القتلة.

وخمسة من هذه التهم تكون عقوبتها الاعدام.

الحقيقة لم تكن هناك محكمة، بل مسرحية هزلية داس فيها رئيسها على جميع القوانين وبشكل علني، فمحامي الدفاع يمنع من الكلام، والأطباء الذين قاموا بفحص (جميلة بو عزة) لم يكونوا مبالين بالقانون الذي لم يحترموه قط. انتهت فصول مسرحية المحاكمة الهزلية بصور حكم الاعدام ضد (جميلة بوحيرد) و (جميلة بو عزة) في يوم 16/تموز/1957، وتمت مصادقة رئيس الجمهورية الفرنسية على قرار الاعدام، وحدد يوم الجمعة 7/آذار/1958 موعداً لتنفيذ حكم الاعدام. وبعد سماع جميلة قرار اعدامها انطلقت بضحة عالية اثار قاضي المحكمة الذي صرخ فيها قائلاً (لاتضحكي في موقف الجد)، ولكنها اجابته بكل قوة وثبات ((ايها السادة، انني اعلم انكم ستحكمون علي بالإعدام، لان أولئك الذين تخدمونهم يتشوقون لرؤية الدماء، ومع ذلك فأنا بريئة، ولقد اسندتم في محاولتكم ادانتني الى مريضة رفضتم عرضها على طبيب الامراض العقلية بسبب مفهوم، والى محضر تحقيق وضعه رجال المظلات وأخفيتم أصله الحقيقي الى اليوم، والحقيقة اني احب بلدي وأريد له الحرية... ولا تنسوا إنكم لاتستطيعون أبداً من منع الجزائر من الحصول على استقلالها))¹¹⁰(111). تصف جميلة شعورها بعد صدور الحكم بأنه كان من اجمل ايام حياتها لأنها ستموت من اجل بلادها الجزائر، التي انشد لها زملاؤها في السجن نشيداً يمجدها هاتفين (جزائرينا) فتركت هذه الهتافات اثرها الملموس على جميلة، فذكرت انها كانت لحظات مؤثرة تعجز الكلمات عن وصفها، ومع وحشية تلك اللحظات والأيام التي قضتها في السجن، ومن اللحظات الصعبة التي مرت بها، فإنها كانت تقول لامها عندما كانت تزورها في السجن (لعلك لاتجديني هنا في المرة القادمة) فتضمها امها والدموع تغمرها فتجيبها بشجاعة مثلى: ((ما أسعدك يا جميلة ان تموتي شهيدة وما أسعدني انا الاخرى ان يشار الي بالبنان))¹¹¹(112). لحظات صعبة لكن مواقف الام والبنات كانت من الشجاعة التي قلما نجدها، وهذا الامر نابع من ايمانهم بقضية الجزائر وضرورة مقاومة المستعمر حتى نيل الاستقلال. بقيت جميلة تعاني طوال ثماني اشهر، وهي بانتظار تنفيذ حكم الاعدام ضدها مرتدية البدلة الحمراء استعداداً لتنفيذ الحكم الذي لم ينفذ امام صرخات الاحتجاج العربية والعالمية، فقبل الموعد الذي حدد لتنفيذ الحكم بيومين اجتمعت لجنة حقوق الانسان بالأمم المتحدة وناقشت موضوع حكم الاعدام الصادر بحق جميلة اثر تلقيها ملايين البرقيات المستنكرة لحكم الاعدام، مما اضطر فرنسا التراجع عن قرار حكم الاعدام، فأصدرت قراراً في 11/4/1958 يقضي بتخفيف حكم الاعدام الى عقوبة السجن المؤبد. وبعد يوم من صدور هذا الحكم ارادت فرنسا ان تعرف وقع الخبر على المتهمه جميلة التي قالت لمراسل الصحيفة الفرنسية (فرانس بريس) الذي زارها في سجنها، انها كانت تفضل الموت على حياة المعتقل وأنها كانت تتمنى لو نفذ فيها حكم الاعدام الذي سيريحها من العذاب المصني الذي تعاناه داخل السجن¹¹²(113). بقيت جميلة في سجن الجزائر ثلاث سنوات، نقلت بعدها الى فرنسا لتقضي سنتين اثنتين اخرى في سجنها الى ان اطلق سراحها مع عدد آخر من السجناء ومن ضمنهم زميلتها (جميلة بو باشا) اثر توقيع معاهدة ايفيان عام 1962 التي منحت الاستقلال للجزائر، وهناك خلاف حول تاريخ خروجها من السجن فهناك مصادر تؤكد انها خرجت 12/4/1962، في حين اكد شهود عيان انها قبل هذا التاريخ، وتحديداً نهاية عام 1961 خرجت من السجن وزارت العراق، وهذا ما سنسلط عليه الضوء في الصفحات اللاحقة.

تأثير جميلة على الصعيد الوطني

بعد صدور حكم الاعدام ضد جميلة بوحيرد، انطلقت الصحف الجزائرية بإطلاق مقالات متعددة تدين الحكم وإرسال رسائل تهديد للمسؤولين الفرنسيين يؤكد كاتبها ان دم جميلة لن يذهب هدرأ، وإنهم سيثأرون لها ولكافة ابناء الجزائر. اما زعماء الثورة والذين اعلنوا، ومنذ ايام الثورة الاولى، ان الارهاب يعتبر وسيلة مقاومة مشروعة لمقاومة الاعداء، فقد قاموا بتبليغ فرنسا عن طريق منظمة الصليب الاحمر الدولية بأنها ستقوم بمبادلة الضباط الفرنسيين الاربعة الواقعين في اسرها مع جميلة، وفي حالة رفض هذه المساومة، وإصرار الحكومة الفرنسية على تنفيذ حكم الاعدام ضد جميلة فأنتهم سينفذون الشريعة الاسلامية (العين بالعين)¹¹³(114).

اما ادباء الجزائر وشعراؤها فانبروا يرفعون اصواتهم دفاعاً عن قضية جميلة التي اصبحت مثلاً يستلهم الشعراء حماسهم، فقام الشاعر (صالح خرفي) بتنظيم قصيدة مؤثرة، بعد صدور حكم الاعدام على جميلة عام 1958، جاء في ابنتها:

لن تموتي يا جميلة	قالها الناس ولكن لم اقلها يا جميلة
انا اهوى ان تموتي يا جميلة	املي ان تستريحي يا جميلة
فالردى في وهج القسوة انسام عليلة	ان في موتك للشعب انتصارات جليلة
ان في شفقك ويلات على ايد دخيلة	قربت للشعب مرماه وللبناني افوله
وجد الحيران في آهاتك الحبرى دليلة حبة انت فديت الشعب، فافديه قتيلة	
صرخة منك على مشنقة الظلم الذليلة	سوف تنهي صرخات الطفل تنسيه عويله
صرخات الام تبكي نحلها اردوه غيلة	سكتة منك على مقصلة الغدر الذليلة
سوف تعلى صرخات الشعب في عيد البطولة	احقني دمع يتامى شرودهم يا جميلة

ورحلت جميلة الجميلات

بسم العسلي، المجاهدة الجزائرية، ص142 (110)110

http://www.kenanaonline.com. (111)111

جميلة بوحيرد البطلة التي قهرت الاستعمار (112)112

<http://forums.ikhwan.net>

بسم العسلي، المجاهدة الجزائرية، ص.ص.145-146 (113)113

ودماً حراً بريئاً، موج الغدر سيوله
ان في تصويحك المأمول ابراق الخميعة
أي موت لم يذيقوك اساه أي حيلة
او راحة من اعباء اغلال ثقيلة؟
أهو اليقظة في خلد كأحلام الطفولة؟
أهو العزة تهوى بالتمائيل الدخيلة؟
أنا ادري الناس كم تهوين موتاً ياجميعة

صوحي يازهرة الفرد ذوبي كالفتيعة
ان في ضوئك اشعاعاً يرى الشعب سبيله
ما هو الموت وقد جرعه دنيا طويلة
أهو الغفوة في نومه عز مستطيلة؟
أهو الفرحة تسري في سرايين الفضيلة
ان يكن موتك هذا فاطليبه ياجميعة
كم طلبت الموت كم منيته عنراً نحيلة
غير ان الموت احياناً له كف بخيلة¹¹⁴(115)

وانشد شاعر آخر قصيدة جاء في احد ابياتها وصفاً لجمال جميلة:

قالوا لها بنت الضياء تأملني ما فيك من فتن ومن انداء

سمراء زان بها الجمال لوانه واهتز روض الشعر للسمراء

اما شاعر الثورة الجزائرية (مفدي زكريا) فقد نظم قصيدة طويلة اسمها (فلا عز.. حتى تستقل الجزائر)، أقسم بمقدمة القصيدة بالجميلات الثلاث¹¹⁵(116)، فأندش قائلاً:

وحق (الجميلات الثلاث) وبالتي اجابت، فراحت للهداء، تهجر الخدرا

سنثراً! حتى يعلم الكون اننا اردنا -فأرغمنا- بإصرارنا الدهر¹¹⁶(117).

ويؤكد (د. عبد الله حمادي)، الذي تابع قضية جميلة من خلال دراسة الاعمال الادبية المتعلقة بها، انه لا يوجد في تاريخ الجزائر رمزاً احتفى به الشعر مثل جميلة بو حيرد، وربما يأتي بعد هذا الرمز في الترتيب جبال الاوراس، ورموز اخرى مثل منطقة وهران وغيرها¹¹⁷(118). استمر الادباء يحتفون بجميلة، رغم اعتقاد الكثير منهم، انها استشهدت لقلة المعلومات التي تتوفر عنها بعد الاستقلال من جانب، ولأنها أثرت العزلة عن السياسة والأضواء من جانب آخر، ففي الذكرى الثالثة والخمسون لإعلان الثورة الجزائرية، اقيم ملتقى ادبي عام 2007 حول الثورة الجزائرية في الادب العربي، ومن ضمن فعاليات هذا الملتقى اقيم استعراض موسيقي-شعري، حمل عنوان (جميلة)، تضمن قصائد لشعراء عرب منهم السوراني (سليمان العيسى، و نزار قباني) والسوداني (محمد الفيتوري) والعراقي (بدر شاكر السياب) والجزائريان الراحلان (صالح باويه) و (جمال عمراني) والشاب (عبد القادر) فكرة الاستعراض الروائية كانت للروائي (امين الزاوي) والإخراج كان للشاعر (عبد الناصر خلاف)، رافق العمل الاستعراضي موسيقى من اعداد العراقي (احمد مختار). كان الاستعراض بمثابة ادانة لعمليات التعذيب التي مارسها الاستعمار الفرنسي على شعب الجزائر ومنهم جميلة، من خلال تصوير لحظات تراجيدية عاشتها بطلة الاستعراض داخل السجون الفرنسية التي انطلقت من داخلها مناظرة كبيرة اسمها (جميلة بو حيرد)¹¹⁸(119).

تأثير جميلة على الصعيد العربي

اصبح اسم (جميلة بو حيرد) يعني النضال والمقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين، فقضيتها تصور لنا وحشة القمع الاستعماري الفرنسي والسياسة اللا انسانية التي طبقوها على مناضلي الشعب الجزائري، لذلك كانت لقضيتها ابعاداً عربية ودولية، فبعد سريان تفاصيل المحاكمة (الهزلية) التي تعرضت لها جميلة وصدر قرار المحكمة القاضي بإعدامها، هب الرأي العام العربي مدافعاً عن قضيتها، فبدأت اولاً البرقيات تنهال على الرئيس الفرنسي (رينيه كوني) ورئيس الوزراء (غايار) يطالب فيها العرب ابدال حكم الاعدام الذي صدر بحق فتاة لا ذنب لها سوى حبها لوطنها ودفاعاً عن استقلاله. لم تقتصر البرقيات على عامة الشعب او الصحفيين، بل كان لقيادة العرب دورهم بالمطالبة بالعفو عن جميلة وأبرزهم الزعيم المصري (جمال عبد الناصر) والرئيس التونسي (الحبيب بو رقيبة) واللبناني (سامي الصلح)¹¹⁹(120). فضلاً عن برقيات الاحتجاج فقد عمت المظاهرات الصاخبة ارجاء واسعة من الوطن العربي، واتصلت بعض الحكومات العربية بسفارات فرنسا ناقلة لها شهور العرب الساخط ازاء قضية جميلة، وقامت المجالس النيابية في الدول العربية برفع قضية جميلة الى هيئة الامم المتحدة اما الصحافة العربية فقد غصت بالقصائد التي تناولت موضوع المناظرة جميلة بو حيرد، حيث سال بشأنها حبر كثيراً وقيل فيها اكثر من ثماني قصائد من مختلف ربوع الوطن العربي، لكن اجمل ما كتب وأروع ما قيل فيها كانت قصيدة للشاعر السوري الكبير (نزار قباني) والتي حملت اسم جميلة ونشرها في ديوانه الموسوم حبيبي الصادر عام 1961 وجاء في ابياتها:

الاسم جميلة بو حيرد

رقم الزنانة تسعوناً

في السجن العربي بوهران

والعمر اثنان وعشرون

عينان كقنديلي معبد

والشعر العربي الاسود

كالصيف..

كشلال الاحزان

إبريق للماء.. وسجان

ويد تنضم على القرآن

المصدر نفسه، ص145؛ جورج ارنو وجاك فيرجيس، المصدر السابق، ص95 (114)¹¹⁴

صالح خرفي، اطلس المعجزات، الجزائر، د.ت، ص87 (115)¹¹⁵

الجميلات الثلاث هن: جميلة بو حيرد، جميلة بو عزة وجميلة بوباشا (116)¹¹⁶

مفدي زكريا، اللهب المقدس، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1961، ص318 (117)¹¹⁷

<http://www.iraq-ina.com> (118)¹¹⁸

المصدر نفسه (119)¹¹⁹

وامرأة في ضوء الصبح
تسترجع في مثل البوح
آيات محزنة الارنان
من سورة (مريم) و (الفتح)
الاسم: جميلة بوحيرد
اسم مكتوب باللهب
مغموس في جرح السحب
في ادب بلادي في ادبي
العمر اثنان وعشرونا
في الصدر استوطن زوج حمام
والثغر الراقد غصن سلام
امرأة من قسنطينة
لم تعرف شفتاها الزينة
لم تدخل حجرتها الاحلام
لم تلعب ابدأ كالأطفال
لم تغرم في عقد او شال
لم تعرف كنساء فرنسا
أقبية اللذة في (بيغال)
الاسم: جميلة بوحيرد
اجمل اغنية في المغرب
اطول نخلة
لمحتها واحات المغرب
اجمل طفلة
اتعبت الشمس ولم تتعب
ياربي.. هل تحت الكواكب
يوجد انسان؟
يرضى ان يأكل.. أن يشرب
من لم مجاهدة تصلب
اضواء الباستيل ضئيلة
وسعال امرأة مسلوقة..
أكلت من نهديها الاغلال
أكل الانذال
من جيش فرنسا المغلوبة
انتصروا الان على انثى
انثى... كالشمعة مصلوقة
القيد يعض على القدمين
وسجائر تطفأ في النهدين
ودم على الانف.. وفي الشفتين
وجراح جميلة بوحيرد
هي والتحرير على موعد
مقصلة تنصب.. والأشرار
يلهون بأنثى دون ازار
وجميلة بين بنادقهم
عصفور في وسط الامطار
الجسد الخمري الاسمر
تنفضه لمسات التيار
وحروق في الثدي الايسر
في الحلمة
في .. في .. يا للعار
الاسم: جميلة بوحيرد
تاريخ: ترويه بلادي
يحفظه بعدي اولادي
تاريخ امرأة من وطني
جلدت مقصلة الجلاد

امرأة دوخت الشمس
ثائرة من جبال الاطلس
يذكرها الليلك والنجس
يذكرها .. زهر الكبار
ما اصغر (جان دارك) فرنسا
في جانب (جان دارك) بلادي..¹²⁰(121).

كما لم تغمطها السينما العربية حقها وهي في اوج عطاءها، فقام المخرج المصري (يوسف شاهين) بانجاز فيلماً سينمائياً عن جميلة بوحيرد حمل اسمها في العام (1958) لعبت الفنانة (ماجدة الصباحي) دور جميلة في الفيلم، الى جانب كوكبة من الفنانين مثل محمود المليجي وزهرة العلا وصلاح ذو الفقار، وللأداء المتميز للفنانة ماجدة فقد تم تكريمها بمنحها درع المجاهدين الجزائريين، بمناسبة الذكرى (46) لاستقلال الجزائر¹²¹(122). وأصبح اسم (جميلة) اسماً وطنياً قومياً يحتذى به، ففي العاصمة السورية دمشق اطلق اسمها على احدى المؤسسات التعليمية التي كانت تحمل سابقاً اسم الفرنسية (جان دارك)¹²²(123). اما بغداد فقد قامت بدعوة المناضلة الجزائرية (جميلة بوحيرد) وفاطمة الجزائرية¹²³(124) لزيارة العراق بعد خروجها من السجن، ولبت الدعوة فكانت زيارتها بتاريخ 18/ تشرين الاول/ 1961، وهذا يؤكد انها خرجت من السجن قبل الاستقلال عام 1962، وما يؤكد ذلك ان السيد (عزيز النعيمي) قال انه رافق جميلة وزميلتها اثناء زيارتها للعراق فقد رافقها لزيارة مرقد الامام ابي حنيفة النعمان في الاعظمية، وحال وصولها للمرقد حصلت مظاهرة في الشوارع ترحيباً بها وتأييداً للثورة الجزائرية، التي كانت مازال مستمرة¹²⁴(125)، فضلاً عن ذلك فقد اقيمت لها احتفالات شعبية وحكومية، تبرع خلالها العراقيون وبسخاء، لصالح الثورة الجزائرية، وعقب ذلك اطلق اسم جميلة على منطقة كانت قيد الانشاء تقع شرق قناة الجيش (تعرف اليوم باسم علوة جميلة) تقديراً من العراقيين واحتفاء بهذه المناضلة وتكريماً لزيارتها للعراق¹²⁵(126). هذا جزء من تأثيرها على الصعيد العربي، وان كان التقدير قد استمر الى وقتنا الحالي، فلا تكاد تمر مناسبة وطنية او عربية تسلط الضوء على نضال المرأة العربية ألا ويذكر اسمها مرادفاً للفظ مناضلة او مجاهدة، وهذا اكبر تأثير يمكن ان تتركه امرأة في تاريخ النضال العربي في التاريخ الحديث والمعاصر.

تأثير جميلة على الصعيد الدولي

كان لقضية محاكمة جميلة والتعذيب الذي تعرضت له اثارا على العواصم الاوروبية وحكوماتها، فبعد اعلان حكم الاعدام ضدها انطلقت الاحتجاجات الساخطة في بريطانيا وألمانيا وروسيا وأمريكا ويوغسلافيا وسويسرا واندونيسيا وجمارتا وطوكيو، وفي العاصمة البريطانية قامت مظاهرات اسبوعية امام السفارة الفرنسية، وقامت منظمة (المصلحة الوطنية الاممية) في بيروت بتوجيه نداء احتجاج للسفارة الفرنسية استجاب له اكثر من (25) الف شخص من مختلف ارجاء العالم، اما المانيا فقد ارسلت (12) الف برقية و (15) الف رسالة احتجاج للحكومة الفرنسية¹²⁶(127). لم تقتصر برقيات الاحتجاج على الحكومات فقط، بل كان للشخصيات السياسية والأدبية البارزة دورها في هذه القضية، ولعل من ابرز من رفع برقيات الاحتجاج ضد الحكومة الفرنسية احتجاجاً على قرارها الجائر بإعدام جميلة هم: السيد (همرشولد) الامين العام لهيئة الأمم المتحدة، السيد (فورو شيلوف) رئيس الاتحاد السوفيتي السيد (برتر ندرول) الفيلسوف الانكليزي الحائز على جائزة نوبل، الكاتب الشهير (ارنو كوستير) ، الزعيم الوطني الهندي (نهرو)، السيد (سانبونيش) رئيس المجلس اليوغسلافي، فضلاً عن (76) نائباً من حزب العمال البريطاني¹²⁷(128).

اما التأثير الاكبر في قضية جميلة، فقد القى بظلاله على العاصمة الفرنسية، باريس، فقد تولت جماعة المقاومة الشيوعية التي تصدر سلسلة منشورات (نصف الليل) بإصدار كتاب حمل عنوان (دفاعاً عن جميلة) الذي افه محامي الدفاع عنها (جاك فيرجيس) والكاتب (جورج ارنو)، وتضمن الكتاب شرحاً تفصيلياً عن محاكمة جميلة وأساليب التعذيب التي تعرضت لها. انقسم الرأي العام الفرنسي حول قضية جميلة وطلب العفو عنها، فهناك من ايد حكم الاعدام وآخرون رفضوا حكم الاعدام ومثل هذا الرأي الراديكاليون الفرنسيون. ولعل التأثير الاكثر وضوحاً في الجانب الدولي، هو قيام المحامي الفرنسي (جاك فيرجيس) بالدفاع عن قضية جميلة، وكان من اوائل المعترضين على حكم الاعدام الذي صدر بحقها، وعند سؤاله عن الدوافع التي وقفت وراء توليه الدفاع عن قضية جميلة اجاب ان دوافعه انطلقت من كون القضية التي يدافع عنها قضية مشروعة فهي تخص الشعب الجزائري باجمعه، هذا من جانب، ومن جانب آخر فالقضية من ناحية مهنية تعتبر قضية رابحة لأي محامي يرتبط اسمه بقضية من هذا النوع سنتعكس على تراثه الشخصي، فكان (جاك) ذكياً بقبوله الدفاع عن جميلة، فقبل ذلك لم يكن سوى محامي بسيط معروف في اوساط القضاء الفرنسي ولكن ليس بالقدر الذي عرف بعد دفاعه عن جميلة بوحيرد¹²⁸(129). ان التأثير الذي تركته قضية جميلة على العالم اجمع تأثيراً قوياً، وهذا يدل على مقدار الظلم والأذى الذي تعرضت له من قبل الفرنسيين الذين وجدوا انفسهم، امام هذا التوحد العالمي حول ضرورة الافراج عن جميلة، مضطرين لابدال حكم الاعدام بالسجن وبالتالي وجدت نفسها امام مئات امثال جميلة ممن ضحوا بدمائهم من اجل الجزائر مضطرة لتوقيع اتفاقية تنسحب فيها من الجزائر والى الابد. لتترك الجزائر حرة لأحرارها الذين ما برحوا يدافعون عن ارضهم ومقدساتهم.

حياة جميلة بعد الاستقلال

بعد اشهر من اطلاق سراح جميلة، قامت بزيارة للسعودية لأداء فريضة العمرة ثم زارت العراق وعدد من الدول العربية، ومع اعلان الاستقلال، تزوجت من محامها الفرنسي (جاك فيرجيس) بعد ان اشهر اسلامه وأصبح اسمه منصور، وأنجبت طفلين،

محمد مبارك الملي، المصدر السابق، ص119؛ بسام العسلي، المجاهدة الجزائرية، ص144 (120)¹²⁰
نزار قباني، الاعمال الشعرية الكاملة، الجزء الاول، ديوان حبيبي، بيروت، 1961، ص449 (121)¹²¹
<http://forums.ikhwan.net> (122)¹²²

جورج ارنو و جاك فيرجيس، المصدر السابق، ص95 (123)¹²³

زوجة رابع ببطاط الذي اصبح رئيس مجلس الشعب الجزائري بعد الاستقلال (124)¹²⁴

مقابلة شخصية مع السيد (عزيز النعيمي) في بغداد، بيت الحكمة بتاريخ 30/1/1999 (125)¹²⁵

تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري، تنقيح: نوري العاني وعلاء الحربي، الجزء الخامس، الطبعة الثانية (منقحة وموسعة)، بغداد، 2005، ص192 (126)¹²⁶

محمد مبارك الملي، المصدر السابق، ص118 (127)¹²⁷

المصدر نقله، ص118-119، جورج ارنو و جاك فيرجيس، المصدر السابق، ص94 (128)¹²⁸

وعندما سأل (جاك) عن رأيه بجميلة التي أصبحت زوجة له، اجاب ان اول اهتمامه بها كان بدافع التعاطف مع مناضلة تدافع عن استقلال بلادها، ولكن مع كثرة اللقاءات اثناء المحاكمة تحول اعجابه السياسي الى رابطة عاطفية توجت بالزواج، فضلاً عن ذلك فجميلة كانت تعني له وبكل استحقاق، علماً من اعلام الحرية والنضال المشروع ضد المحتلين¹²⁹(130). وبعد تشكيل الحكومة الجزائرية اثر توقيع معاهدة ايفيان، تولت جميلة رئاسة اتحاد المرأة الجزائري، وناضلت كثيراً من اجل المرأة الجزائرية من خلال هذا الاتحاد، ولكن لخلاف غير معروف مع الرئيس احمد بن بله قررت الاستقالة عام 1963، وإخلاء الساحة السياسية لأنها حسب ماورد في بعض المصادر، لم تعد قادرة على احتمال المزيد من الخلافات¹³⁰(131). ان التعذيب الذي تعرضت له جميلة ومكونها سنوات في السجن، جعلها امرأة لا تبيح عن المناصب قدر بحثها عن حرية بلادها، وهذا ماتحقق بعد الاستقلال اما هي فقد ادت رسالتها وانتهت . وحياتها بعد الاستقلال تؤكد ذلك منذ عام 1963 قررت جميلة نكران ذاتها، فقد تنازلت عن حقها في كرسي النبابة، فضلاً عن تنازلها في الاستحواذ على اية امتيازات او املاك، فقد ذكر محافظ الجزائر المجاهد (عبد الرزاق) انه تشرف بمقابلة (جميلة)، وطلب ان يكرمها لدورها في تحرير الجزائر باعطاءها مسكناً في العاصمة وهذا اقل مايمكن ان يمنح لمثيلاثها، ولظروف خاصة بجميلة فقد أبطت باستلام المسكن، مما ادى لاعطاءه لشخص آخر، وهو من المجاهدين ايضاً، ممن كان يطمح لأخذ المسكن له لحاجته له، وعند وصول الخبر لجميلة تنازلت عن المنزل بطيب خاطر وأثرته على نفسها¹³¹(132) لتسكن بعد ذلك في احدى عمارات حي حيدرة، وتحديدأ في الطابق الثامن في عمارة تفتقر لوجود المصعد الكهربائي، وتعيش حياة بسيطة جداً تكرسها لتربية ابناءها فحسب المعلومات الشحيحة انها انجبت ولداً وبناتاً اسمتها (حورية) وهي الان مهندسة معمارية تشرف على اعادة ترميم الحي الذي كانت تقطن فيه والدتها (حي القصبه) الشهير، من خلال امتلاكها لمؤسسة للفن المعماري. ابتعدت جميلة عن الصحافة، فهي لا تكلمها وتحرص كل الحرص على عدم ظهور صورها في وسائل الاعلام، ومرد ذلك يعود لما تعرضت له من هجوم من قبل الصحافة عقب ارتباطها بالمحامي الفرنسي (جاك فيرجيس) فقد نشرت صحيفة الاحرار الجزائرية رسماً كاريكاتورياً لجملة وبطنها منتفخة جراء الحمل لطفل يرتدي برنيطة التي ترمز للزي الفرنسي او اللباس الذي اعتاد الفرنسيون لبسه، مما اثار حفيظتها وجعلها تبتعد عن الصحافة كل البعد، وتؤكد ذلك بمناسبات عديدة فالروائية الجزائرية (احلام مستغانمي) ذكرت انها الفت بها بمحض الصدفة عندما كانتا في طائرة واحدة، وكانت جميلة تجلس في الكراسي الخلفية بالدرجة الثانية ولا احد يعرفها، بينما (احلام) كانت تجلس بالدرجة الاولى، وعندما عرفتها احلام وتكلمت معها، التقت اليها الكاميرات لكنها عملت على تغطية وجهها بمجلة كانت تحملها، ورجت ان لا يصورها احد¹³²(133). بقيت جميلة في عزلتها عن الحياة السياسية والاجتماعية تعيش كسيدة عادية هادئة وباسمة على الدوام، ولكنها تبدو اصغر من عمرها بكثير، ولكنها مع بداية القرن الواحد والعشرين قررت الخروج من عزلتها، وبصمت لتبدأ المشاركة في بعض الانشطة الاجتماعية، ففي عام 2003 شاركت في صالون الجزائر الدولي للكتاب اثر دعوة الروائية (احلام مستغانمي) لها، والتي اقامت لها مؤتمراً صحفياً على هامش المؤتمر الذي تجمع فيه حشد كبير من الادباء والصحفيين الذين التقوا بجميلة التي بدت بسيطة جداً في كلامها وملبسها، ورجت الصحفيين ان لا يكلموها في ماضيها الثوري او السياسي، وعندما سألتها الصحفيون عن انطباعاتها حول الفلم السينمائي الذي صور قضية تعذيبها ومحاكمتها، اجابت بتلقائية بسيطة ان الفلم لا يمثلها في شيء، بل يمثل ثورة الجزائر¹³³(134). وهذا الكتمان والابتعاد عن حياتها السياسية لم يكن محدداً مع الصحافة بل مع المقربين منها ايضاً، فزوجها المحامي (جاك فيرجيس) اكد انها لم تتحدث معه عن تفاصيل عملها السياسي، وانه قدر هذا الكتمان والتحفظ لأنها، أي جميلة، كانت تنتمي الى تنظيمات سرية ومن واجب المنتمي اليها عدم كشف سرها. وحتى بعد ارتباطها بها احترم كتمانها وتحفظها على المعلومات التي تخص علمها والنضالي والسياسي¹³⁴(135).

ومع احتفالات الذكرى (53) للثورة الجزائرية، أقيم استعراض موسيقي-شعري حمل اسم (جميلة) وكانت من الحاضرات في هذا الاستعراض الذي سلط الضوء على حياتها وقضية تعذيبها. بتاريخ 2007/18/11، وكتكريم او احتفاء بدورها في الثورة الجزائرية فقد قامت بقص الشريط التقليدي لفعاليات الاسبوع الثقافي الليبي الذي عقد بالجزائر للفترة من 18-22/11/2007 والذي تضمن فعاليات وأمسيات شعرية عديدة على هامش الاسبوع الثقافي¹³⁵(136). وعقب ذلك وتحديداً في 2008/2/11 شاركت في الندوة التاريخية التي حملت اسم مجاهدات في الزنانات التي اقامها المقهى الادبي التابع للصالون الدولي للكتاب. ووجدت من هذا المناسبة فرصة لتؤكد من خلالها للعالم وللصحافة انها لم تفارق الجزائر ابداً مثلما روجت لذلك بعض الصحف بل على العكس انها تعيش داخل الجزائر الى آخر يوم¹³⁶(137). وهذا ينفي المعلومات الخاطئة التي اكدتها بعض المصادر بأنها تعيش في فرنسا وكانت جريدة العرب الدولية (الشرق الاوسط) قد اجرت معها لقاءً مطولاً في مكان اقامتها في العاصمة الجزائرية، وبحضور حفيدتها (فاطمة) البالغة من العمر ست سنوات، وسألت جميلة في البداية، لماذا ابتعدت عن المناصب الحكومية والسياسية؟ وهل ابتعادها عن العمل السياسي يعني انها أصبحت انسانة منسية؟ اجابت وتبواضع متناهي: ان دورها بدأ وانتهى في النضال من اجل الحرية فما فعلته هو الواجب الذي يمليه عليها ضميرها وموقفها من الثورة، وعندما تحقق الاستقلال، انصرفت الى همومها البيئية المتمثلة بالاهتمام بعائلتها ودراسة اللغة العربية وتراث الجزائر، وأضافت أن ما قامت به وزملائها من اعمال نضالية لا يمكن ان تنساها الاجيال الجديدة، اما عن رأيها في الافلام التي صورت عنها والكتب التي ألقت عنها والقصائد التي كتبت فيها، فقالت انها ادت غرضها في ايقاد شعلة الثورة، وان كل ذلك لم يكن يعينها، بل كان للثورة، فهي كانت الغاية، ولم تكن جميلة سوى الوسيلة¹³⁷(138)، وأكدت خلال هذا اللقاء ايضاً، انها لم تقم في باريس التي تعرفت على مدنها الجميلة من نوافذ السجون التي قضت فيها خمس سنوات،

مقابلة شخصية مع الدكتور قيس محمد نوري (امين عام بين الحكمة) في بغداد بتاريخ 31/1/1999 وكان الدكتور قيس قد التقى اثناء دراسته في باريس عام 1979 مع المحامي (جاك) (129)¹²⁹ (فيرجيس).

المصدر نفسه (130)¹³⁰.

http://www.shrooq2.com (131)¹³¹.

http://www.iraq-ina.com (132)¹³².

المصدر نفسه (133)¹³³.

المصدر نفسه (134)¹³⁴.

مقابلة شخصية مع د. قيس محمد نوري، بغداد، 31/1/1999 (135)¹³⁵.

http://www.middle-east-online.com (136)¹³⁶.

مدل ايبست اونلاين. جميلة بوخيرد تفتتح الاسبوع الثقافي الليبي بالجزائر

http://www.elhiwaa-dz.com (137)¹³⁷.

وعندما سألت ابن تمضي اكثر وقتها؟ اجابت بعتب واضح وهل هناك اجمل من الجزائر؟ ان هذا العتب توجهه (جميلة) الى أي شخص يتهمها بأنها تركت الجزائر، واستقرت في فرنسا التي حاربتها من اجل نيل الاستقلال فالكثير من الصحفيون يعيبون عليها ارتباطها بشخص فرنسي والاستقرار بفرنسا، لكنها تؤكد ان زوجها المحامي (جاك فيرجيس) قد اعتنق الاسلام بعد زواجه منها واستقر معها في الجزائر، اما فرنسا فهي تذهب اليها بين حين وآخر للعلاج خصوصاً وإنما تعرضت لأمراض مزمنة جراء التعذيب الذي تعرضت له اثناء محاكمتها من قبل جنود المظلات الفرنسيين عام 1957 والتي بدأت اثار الامراض تظهر تدريجياً عليها مما اضطرها للذهاب لفرنسا لأكثر من مرة نهاية العام (2008) لغرض العلاج اثر اشتداد المرض عليها.

الاستنتاجات

شكل نضال الشعب الجزائري على مدى قرن من الزمن انموذجاً بطولياً خالداً للعالم اجمع وشكل الاستعمار الفرنسي من جانبه بأساليبه الاستعمارية أنموذجاً للوحشية والهمجية اللانسانية التي تجاوزت بفضاعتها وعدم احترامها للجنس البشري، بريرة البرابرة، وشكلت المرأة الجزائرية بقدرتها على التحمل والذود عن النفس مثلاً رائعاً للمرأة العربية والعالمية على حد سواء.

لقد خرج البحث بجملة من الاستنتاجات، اهمها:

- 1- ان حادثة المروحة الشهيرة وقعت عام 1827 وليس عام 1830 كما هو معروف لدى الغالبية العظمى، او كما تذكره الكثير من المصادر، وان هذه الحادثة كانت السبب بقدم القوات الفرنسية الى السواحل الجزائرية وفرضها حصاراً عليها ولم تتم عملية الاحتلال للأراضي الجزائرية إلا في العام 1830.
- 2- اندفعت فرنسا بدوافع سياسية واقتصادية ودينية لاحتلالها الجزائر، وان كان الدافع الاقتصادي هو الاهم، لكونها كانت مديونة بمبالغ مالية كثيرة لعدد من الدول وبمقدمتها الجزائر وهذا ما اكده السياسي الالمانى مترنيخ عندما قال ((لايصرف مئة مليون فرنك ويعرض اربعين الف رجل للموت من اجل مروحة)).
- 3- مارست فرنسا خلال استعمارها للجزائر اساليباً استعمارية عديدة، منها ما هو موجه ضد الدين الاسلامي للقضاء على الاسلام وإعلان الجزائر منطقة مسيحية، ومنها ما هو موجه ضد الشباب بفرضها الخدمة العسكرية الاجبارية وبشروط قاسية، فضلاً عن فرض سياسة الفرنسة ومانجم عنها من تردي في الاوضاع الاجتماعية العامة.
- 4- طبقت فرنسا على الجزائريين اساليباً تعذيبية، وبشكل خاص ضد الثوار، وتتنوع هذه الاساليب وازدادت وحشية مع اعلان الثورة الجزائرية عام 1954، والتي راح ضحيتها عدد كبير من الشهداء الذين وصل عددهم مع اعلان الاستقلال مليون شهيد، لذلك عرفت الجزائر باسم ارض المليون شهيد.
- 5- كان للمرأة الجزائرية شرف المساهمة في مقاومة المستعمر الفرنسي بل واكثر من ذلك، فبعضهن قدن ثورات مسلحة ضد المستعمر، وبرز نشاط المرأة بشكل خاص بعد اعلان الثورة الجزائرية عام 1954 فظهرت فدائيات ومناضلات كثيرات.
- 6- كانت المناضلة جميلة بوحيرد واحدة من آلاف النساء المناضلات وفي ذات الوقت كانت انموذجاً للممارسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، لكونها تعرضت مثلما تعرض غيرها من المناضلين الى شتى انواع التعذيب ولكنها بقيت صامدة ولم تعرف على زملائها في جبهة التحرير.
- 7- هناك خطأ تاريخي يؤكد ان المناضلة جميلة بقيت في السجون الفرنسية الى اعلان الاستقلال عام 1962 لكن الحقائق التاريخية وشهود العيان يؤكدان انها خرجت من السجن مع بدء المفاوضات مع الفرنسيين، أي في عام 1961، وهو ذات العام الذي زارت فيه دول عربية منها العراق.
- 8- بقيت الجزائر مكاناً لإقامة المناضلة وليست فرنسا، حسب ماكانت تروج له بعض وسائل الاعلام لأنها تقول انه لا يوجد مكان أجمل من الجزائر لأسكن فيه.
- 9- بقيت ذكرى المناضلة جميلة بوحيرد، خالدة على مر العصور، ليس في الجزائر فحسب بل في المناطق العربية والعالمية كذلك لأنها بقيت بعيدة عن النشاطات السياسية والاجتماعية فلم تحبذ اللقاءات الصحفية والأضواء لأنها اعتبرت أن ما قامت به ايام الثورة لم يكن سوى الواجب وما يمليه عليها ضميرها.